حوش الشاي

سمير الجندي

سمير الجندي

"حوش الشاي"

الطبعة الأولى (٢٠١٣)

دار الجندي للنشر والتوزيع

القدس

info@aljundi.biz

www.aljundi.biz

حوش الشاي

سمير الجندي

قصةُ الأمسِ كانت جميلة جداً، فلمن كتبتها؟
لها وحدَها...
فأنا لا أكتبُ إلاَّ عنها...



ماذا يوجعك؟

حَدّثيني يا قدس، قولي شيئا، أين يؤلمك، هل أطبق الغازي على صدرك؟ هل اختنقت بلهيب عبراتك؟ هل خذلك أحباؤك حتى قتلتك الوحدة السوداء؟ هل سلبوك الحلم؟ هل جردوك من ابتسامتك قبل الصباح؟ هل دنسوا عتباتك الرخامية؟ هل صادروا منك رائحة القهوة السادة؟ هل مروا فوق حجارتك الرومانية ببساطيرهم الشيطانية؟ هل انتزعوا من بين ضلوعك بساتين الجوري فلم تعد رائحة البخور الهندي تنمنم أنوف المتهجدين؟ هل تعبتْ من همومك آلهة العشق السرمدية؟ هل تبتَ عن مغازلة الفتيان أمام محراب الآلهة؟ هل نفَّذ إبراهيم وعد الحق، فقتل ابنه على مذبح الوفاء؟ وهل بقي الشعراء والعمَّار والأولياء والشهداء والصَّلاح على وعودهم؟ وأنتِ في كل مساء تتوشحين الحزن، لنفقد نحن كل مذاق للنوم؛ فلا نرى إلا أضغاث أحلام وكوابيس تفقدنا شهية الحياة بلا كرامة...

حوش البسطامي...

في حوش البسطامي بالقدس العتيقة، ما زال بيتي هناك، الطحان، وبسيسو، والأفغاني، والكسواني، والمصري، والكرد، وجودة، والمظفر؛ هذه هي عائلتي الكبيرة، نشأت بينها، صغيرا ويافعا، لم أدرك أنهم فقط جيراني إلا عندما، بلغت سن الخروج من الحي، كنت أخالهم أقاربي من عائلتي، لم يكن بيننا أية حواجز، كنا نتشارك الطعام والدفء والبرد والفرح والحزن، تشاركنا في خندق المواجهة مع الدخيل المحتل، رفعنا رايتنا بألوانها الأربعة، تقاسمت أجسادنا الرصاص والورود، والكرامة... أنا اليوم أستذكر أم عمر وأم داود وأم علي وأم مصطفى وأم سمير، أستذكر زهير البقال، وأم فيصل وهي تقارع الجنود، وأستذكر عتبات البيوت، والنوافذ التي تطل منها العذارى، وأستذكر حمائم أبي يحيى وأبي جميل، والسماء الزرقاء وقد حجبتها أجنحة طيور اللقلق... عندما أفقت، هيأت نفسي، لبست أجمل ثيابي، تعطرت، وانطلقتُ إلى حوش البسطامي، أتفقد بقايا حلمي...

حوش الشاي

في حوش الشاي فتَّحت عينيَّ على ضوء القمر الذي تسلق قلعة داود من جهتها الغربية، وأُشبع أنفي من رائحة فلافل أيوب النتشة، ولسعة الرطوبة المنبعثة من ملابسنا المستوردة من سوق الباشورة، وألفت أذناي صرخات المواليد الجدد على أيدي الست (أُميلا)، قابلة القدس العتيقة، وحلقت حالمامع قصص (شهندة) التركية... ورحلت مع الحمام الزاجل في حزيران.. رحلت وأنا لا أدري معنى الرحيل، رحلت إلى مكان غير بعيد، إلى الطرف الآخر من البلدة العتيقة، إلى حوش البسطامي... هنا في حوش البسطامي عرفت أنه كان لي وطن، واسمه فلسطين، عرفت أنني كنت في حوش الشاي في وطني، واليوم أنا أسكن لاجئا في حوش البسطامي، فقررت العودة ذات صباح إلى وطني في حوش الشاي.. لم أجد وطني، كان قد صار كنيسا يهوديا، وحائطا يهوديا، ومدرسة للإرهابيين يطلقون عليها "عطيرات كوهانيم"، كنت صغيرا، لا أعرف معنى السياسة، والآن أنا لا أعرف السياسة ولا أفهمها، الشيء الوحيد

الذي أفهمه، أن لي وطنًا هناك، وأريد العودة إليه، كيف؟ لا أفهم إلا طريقا واحدا... بسيف عمر المختار قاهر الطليان، وبندقية (تشي جيفارا) معجز الأمريكان، وخنجر أدهم حجر مُنهك الفرنسيين...

المدرسة العمرية...

المدرسة العمرية، في قلب القدس العتيقة، مدرستي، موجودة هنا في القدس، باقية لم تتغير حجارتها، لكنها هرمت، وتشققت كوجه آذنها الجميل عمران، دخلتها زائراً، أغمضت عينيّ، فأخذت ذاكرتي التي شاخت تشي بقصص لم تنته، إذاعة الصباح، وصوت مديرها المجلجل محمد صيام، صاحب الخط العربي الفريد بجماله، يردد على مسامعنا نصائح وعبرًا ربما هي أساس تربيتنا الأصيلة، يقف الطلبة أمامه دون حراك أو ملل، يقفون استعدادا لتقبل كل كلمة من كلماته المعبرة، يسترشدون من منهله الذي لا ينبض، وعن يمينه ويساره يقف المعلمون خاشعين أمام عظمة هذا المدير، وغرف الدرس مشرعة أبوابها بانتظار يوم دراسي جديد، وشجرة السرو تحجب بظلها أشعة شمس أيلول التي تحاول الاستراحة على سفح جبل الزيتون، والمسجد الأقصى الذي يتربع مكانه قبالة نوافذ المدرسة الجنوبية، وأنا وفوزي البكري أستاذ العربية، وفهمي الأنصاري، وعدلي النشاشيبي أستاذ التربية الرياضية، ما زلنا هنا على

أمل استحضار ذلك الزمن الجميل، بعد أن داهمتنا جحافل القهر، محاولة سلخنا عن حلمنا الذي صنعناه معًا قبل الخامس من حزيران المشؤوم...

طريق الآلام...

في القدس العتيقة، في طريق الآلام، سار المسيح على قدميه الجريحة حاملا صليبه، ينزف كتفه دما أحمر قانيًا، و(فيرونيكا) القديسة تمسح وجعه بمنديلها القطني الأبيض، لا تستطيع إخفاء دموعها التي تذرف كحبات اللؤلؤ على خدها الأسيل، خجل الزمن من تلك الدموع الطاهرة، فنسي المسيح آلامه ليصعد إلى السماء قبل أن تطاله مقصلة الجلاد، في طريق الآلام يسير اليوم ألف شاب وصبية يحملون جرح الياسمين في قلوبهم وحيدين.. ولا (فيرونيكا) تمسح وجعهم أو تذرف الدمع لتسكن آلامهم... هم وحيدون يحملون صلبانهم، قلوبهم تنزف، سواعدهم السمراء تنزف، لكن إرادتهم ثابتة، صلبة، لا تتزعزع، تعانقت أوجاع الماضي وآلام الحاضر والجلاد واحد...هو... هو...

يافا...

بالكاد أستطيع تحمل البعد عنك يا يافا، اليوم أنا في شدة الشوق إليك، من القدس توجهت بسيارتي إلى يافا، وصلتها مع الغروب، كانت الطريق سالكة، ثلاثون دقيقة والسيارة تلتهم الطريق كتنين استوائي ينهش فريسته بلمح البصر، حتى وصلتها وغروب الشمس.

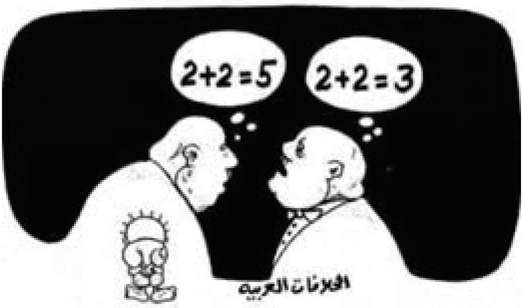
كان الشفق الأحمر يحارب العتمة، يدافع عن شمس النهار، والبحر مستسلما للأفق الوردي، لا موج ولا صوت ولا ضجيج، وقارب متهالك تعب قبطانه من ترميمه عشرات السنين، شققته المسافات، وعاثت بجداره الخشبي السنون، والصياد يعالج سطح الماء بمجدافيه الخشبيين، وقناديل البحر تحيط بقاربه من كل اتجاه، وقد تقشرت يداه. وعلت وجهه خيوط سوداء... وسفينة بلون رمادي تمخر عباب الماء، تظهر من بعيد فيكاد قارب صاحبنا يختفي، مر المركب الرمادي كالسهم، مخلفا خطا هائلا من رغوة بيضاء حجبت الأفق، والقارب واللون الأحمر، فصار الكون أسود أسود...

تراك لو كنت بوجهين، ولسانين، ونصف عقل...

فهل أنت سعيد بما لديك؟!

لأن أكون بنصف وجه ونصف لسان،

أحب إلي من أن أكون ذا قولين مختلفين...



خلف العتمة...

كنت أسير على قدمي، أسير رافعا رأسي ليس تكبراً، كنت مزهواً، كل يوم عشت هكذا مزهواً.

جلدي يلمع كالذهب المصفى، وعيناي تبرقان بسحر الحياة، وروحي تحلق فتكاد تلمس النجوم، وحلمي على وشك الحضور، وقلبي عاد شابا يقطف لمحبوبته ألوان الزهور، وقدماي تلامسان الأرض على استحياء، وعزيمتي اتحدت مع الحديد فتكونت جسور الأمنيات، وهمتي تعانق السحاب، إلى أن جاء "أوسلو" فانتزع منا الحلم ووضعه على مذبح الخيانة، وجرد جرابنا من حرابها، فصارت جلودنا صفراء، وعيوننا صفراء، وقلوبنا لم تعد خضراء، وأرواحنا تشتتت، فتبعثرت بصائرنا، ولا مكان لقدمي على الأرض التي سحبت من تحتها، فصارت خطواتي تتلعثم...

وباء...

أطل الصباح بردائه الفضفاض، المدينة مريضة بمرض عضال، السوق بارد يفتقد لصراخ الباعة، أمكنتهم متاحة، ودرجات باب العمود خالية من الخضار الموسمية الطازجة، البوابات مغلقة بأجساد ضخام كالبغال النورماندية، أنا أبحث بينها عن خطوات متعبة ، كل شيء حزين، مسجد الشوربجي منكسر، بقالة أبو غزالة متعبة من قهر العيون الرمادية، شاخت أحزان الهوسبيس، وتقززت درجاته الخمس من بساطيرهم الملوثة بدماء أطفال المدينة، والمسيح لأول مرة منذ ألفي سنة ولّت، لم يشعر بالمهانة كما يشعر بها الآن، لم تعد فيرونيكا تنتظر حامل الصليب لتمسح بمنديلها الدماء التي سالت على وجنتيه وخلف أذنيه الطاهرتين، والقديس اليوناني (خرلمبو) عاجز عن توفير مسكن لأوجاعها المتراكمة، وخاصكي سلطان، تلك المرأة الشريفة، التي برَّدت بحنانها أوجاع الفقراء، تتقلب في قبرها قلقاً على مصير كتاتيب النور... لم أجد خطواتي رغم محاولاتي المتكررة اليائسة في البحث بين متاهات أحقادهم المتأججة...

سرتُ في كل اتجاه، هم لا يعرفونها، فأنا أعرف مدينتي، وأعرف ما يمكن وما لا يمكن لهم أن يعرفوه، لكنهم متواجدون في كل ركن، وفي كل زاوية وزقاق، تعلموا جغرافيتها ونحن نسينا، تعلموا أسماءَها وبدلوها، تعلموا أننا نصرخ وندعي ونساوم، سخروا منا عندما بدلنا جلودنا... تعلمونا وحفظونا عن ظهر قلب، ونحن فقدنا حلمنا على أول الطريق في أيلول... تركنا المدينة لقمة سائغة، تركناها لقمة لذيذة يستلذون بطعمها، ويشربون النبيذ الأحمر في أمسياتهم، يحتفلون بها بعد أن ألبسوها ثوبا بلون أسود كقفطان راباي بولندي لم يقرب جسده الماء منذ السابع من حزيران فزادت نتانته.

لم أعد أعرف ما برأسي فأنا غريب في حارتي العتيقة، وبيتي يئن من الوجع، والمئذنة الحمراء يكاد الحزن يفتك بها بعد أن غادرها آخر مؤذن... وجوقة التراتيل في الكنيسة اللوثرية قد فقدت توازنها، فصارت لأول مرة موسيقاها نشازًا... ولم أعد أرى قبة الصخرة من فوق برجها المخروطي؛ فقد حجبت راياتهم الزرق الرؤيا، والأسطح مُلئت بأبراج الحراسة، وجحافل المستوطنين بردائهم الأسود يسيرون بخط مستقيم كنمل سليمان الحكيم...

البيك

البيك، ينظر إلى ساعته، الأزمة خانقة، سنتأخر عن موعدنا، ينفخ الهواء، وكلما مر الوقت ازداد وجهه المستدير احمرارا، وانتفخت رقبته بحيث صار وجهه السمين موصولا مباشرة مع كتفيه ومع عظام الترقوة، ازداد غضبه غضبا عندما أدركه الوقت، وعندما تخيل شكله وهو يدخل على الزعيم متأخراً، صرخ بحراسه: "اذهبوا لاستطلاع الأمر، تحركوا اعملوا شيئا مفيدا".

امتثل حراسه للأمر، وتوجهوا نحو الجمع الغفير؛ فوجئوا بحمار يحاور أحد المارة، والناس ملتفون حوله كأنها تظاهرة ضمت جميع فئات الشعب، حاول الحراس فض الجمع، نجحوا بصعوبة كبيرة، الشاب الذي يحاور الحمار حاول الهرب، فلم ينجح، أمسك به حراس البيك، اعتقلوه، ومن حسن الحظ أن الحمار استطاع الإفلات بأعجوبة، ولم يكن ينجح بالهرب لولا مساعدة بعض الناس...

أما الشاب المعتقل فقد تعرض للتعذيب الشديد، لكي يخبرهم عن سبب

تحدثه مع حمار، لكنه أجابهم بحقيقة الأمر دون أن يزيد أو ينقص من حواره مع الحمار، سأله البيك: من قلة البشر تأتي للتحدث مع حمار؟

- وهل الحديث مع الحمير ممنوع حسب القانون، والدستور؟ مع من تريدني أن أتحدث؟ مع العمال المرهقين من بناء المستوطنات وفتح الشوارع للمستوطنين؟

أم تريدني أن أتحدث إلى المعلمين الذين يفتقرون لأبسط مقومات الحياة، أم مع الأطباء المشغولين في إيجاد طريقة غير موجعة لاستئصال الحق من خاصرة المفاوضات المستعصية؟ أم تريدني التحدث مع المحامين الذين تخلوا عن قسمهم في حماية حقوق المواطنين؟ أم مع التجار الذين لا يهمهم سوى جني الأرباح؟ أم مع النساء اللواتي أصبحن في طوابير لرفع قضايا الخلع من عادات شعبنا وتقاليده البالية؟ أم مع حراسك الذين أنستهم سياطك أنهم كانوا ذات يوم من البشر؟

عم كنتما تتحدثان؟

كنا نتحدث عن الحب...

كذاب، لم يعد أحد يحب أحدًا في هذه الأيام، قل الحقيقة.

كنا نتحدث عن كرة القدم الفلسطينية..

كذاب، فلا أحد يتابع الكرة الفلسطينية، بسبب انشغالهم بالدوري الأوروبي، وبالربيع العربي، وبالانتخابات في البيت الأبيض والأزرق والأحمر والأصفر... قل ولا تزد من غضبي، عم كنتما تتحدثان؟

كنا نتحدث عن الأغاني العربية، وكان الحمار يقول لي إنه معجب بأغنية " بحبك يا حمار لولا بشاعة صوت المغني...

هز البيك رأسه، وبدا عليه الارتياح من هذه الإجابة... انطلقت سيارة البيك بأسرع ماتستطيع ، وعندما دخل إلى قاعة الاجتماع وجد المجتمعين متحلقين حول الحمار ينصتون إليه بشغف...

عراك غير متكافئ

نهضت شبه فزع على نهيق حمارنا المتواصل، كانت الشمس لا تزال مستترة بالعتمة، عندما جاء بلطجية "البيك" يحملون العصي والهراوات لينهالوا ضربا على حمارنا، وابني يحاول إبعادهم عنه بكل ما أوتي من وسائل طفولية، بالدموع وبالصراخ والاستجداء، حاولنا أنا وزوجتي وبعض الجيران إبعادهم عنه فلم نفلح، والحمار يرفس ويرفس ويرفس وينهق نهيقا غاضبا، وبلطجية البيك ضخام الجثث، يشبهون البغال في أجسامهم، وعقولهم كالعصافير، وضمائرهم متجمدة، وعيونهم تقدح شررا كشياطين طروادة، تلمع بالعتمة، وأنا أتقطع حزنا على حمار ابني الذي لم يأل جهدا في إبعادهم عن نفسه، ولم يكف عن رفسهم، لكنه لم يظفر بأي منهم في بادئ الأمر؛ هم مدربون على هذه المعركة غير المتكافئة، عشرة من الوحوش الآدمية بهراواتهم وبإصرارهم الغريب على أذية هذا المخلوق المسالم اللطيف، لأكثر من نصف ساعة بقليل استمر العراك البشع، ولم ينته إلا عندما وقع حافر حمار ابني على

وجه كبيرهم ليترك وسما على شكل حدوة على صدغه الأيمن، حملوا هراواتهم وهربوا لا يلوون على شيء، كانت الهجمة مخططا لها منذ وقع البيك على شرفة منزله وبانت عورته، البيك استاء جدا لأن عورته بانت، ولم يعلم أن عوراته كثيرة، البيك لم يعد وزيرا، ولم يتسلم منصبا حكوميا، لكنه تسلم رئاسة مؤسسة غير حكومية(NGO)، من صنع " الدول المانحة" ليسبح حرا في بحر من أموال العار...

البيك على شاشة التلفاز

هذا الصباح، على شاشة التلفاز، وقف "البيك" يخطب، وأمامه "ميكروفونات" بألوان ومقاييس مختلفة، "البيك" كان يلقي بيانا صحفيا أمام حشد من مراسلي وسائل الإعلام المحلية والدولية، يحدثهم عن معاناة أهل القدس، ومدى احتياج المدينة لتكاتف الجهود من أجل دعم صمود أهلها. كان يتحدث وهو بكامل هندامه؛ يرتدي طقما كحليًا، وقميصًا أزرق سماويًا، وربطة عنق حريرية ذات اللون الخمري المائل إلى الأحمر القاني، لون الدم، ويضع على عينيه نظارة لتحسن من نظره، كان يحدثهم بحماسة، ويستخدم يديه وعينيه وكل أعضائه لدعم عباراته المنتقاه، كان يتحدث وخلفه حارسه الشخصي وقد وسم بحافر على وجهه، وتحديدا على صدغه الأيمن...

غدا... ويوم السبت

غدا ويوم السبت، ممنوع تواجد العرب في البلدة القديمة، على جميع الفقراء من العرب، والأغنياء، وكل من ينطق بلغة الضاد، وكل من له بشرة سمراء، عليهم جميعا الخروج، أو النزوح، أو الدخول في مطحنة التاريخ، باختصار! عليهم ترك المدينة العتيقة، لأن اليهود قد استنفروا وشدوا الرحال إلى القدس، علينا إفساح المجال لهم، هذا مرادهم، المدينة فارغة...

قلت لصديقي: أحدهم يتبجح ويصيح مناديا ومتهما من يدعو لشد الرحال إلى القدس بأنه تطبع مع اليهود، تغير لون صديقي وصرخ قائلا: " من هذا الحمار؟" وهنا انتفض حمارنا، ونهق نهقته المعهودة عندما يغضب، وصرخ قائلا: " كيف توجه مثل هذه الإهانة لنا نحن معشر الحمير؟" عليك الاعتذار وإلا تعرضت للرفس حتى تنسى اسمك..

اعتذر صديقي من حمارنا وقال له: " اللي ما بيعرفك بجهلك" .

فقال حمارنا: " هل تظن أن واحدًا من بني الحمير يمكن له أن يتفوه بمثل

هذا القول؟"

لا أظن ذلك، إنما هي لغة على اللسان...

عليك بوزن كلامك، وعدم توزيع المسبات جزافا، إن الذي يدعو بعدم جواز زيارة القدس لمن يستطيع الوصول إليها، إنما هو فاسد وغبي، وضيق الأفق، لأن بدعوته هذه إنما يخدم المشروع الصهيوني الهادف إلى تقليص الوجود العربي في المدينة، ما يوفر له مناخا صافيا للسيطرة على المدينة، وأنا أتحدى إذا تفوه أحد من بني جنسي الحمير بهذا القول...

تدخلت بالحديث حتى لا يثار أكثر، فيقوم برفس صديقي رفسة تشوه له وجهه، فكان صدره واسعا وغفر لصديقي زلته قائلا: "هو لا يدري، ولو كان يعلم قباحة هذه المقارنة لما تفوه بها...

إضراب...

لليوم الثاني على التوالي حمارنا يمتنع عن الشعير والبرسيم؛ فقط يشرب بعض الماء، ولا يصدر أية أصوات، والغريب أنه يقاطع الإناث من كل جنس؛ ما أثار عندي الفضول لعلمي بمدى تعلقه بهذا الأمر، اليوم هو لا يهتم إلا بشيء واحد، الإضراب عن الطعام...

سألته: لماذا تضرب عن الطعام؟ قال:" أنا أقوم بواجبي تجاه مبادئي الحميرية، أنا لا استطيع أن أرى مخلوقا على وجه الأرض يتألم وأقف دون أن أرفع صوتي بالنهيق، وإذا لم يفلح الصوت بالمساعدة أستخدم وسائلي العملية، وإذا لزم الأمر أستخدم حوافري، وغالبا ما أصل إلى مبتغاي، اليوم، أنا أمتنع عن الطعام، بالرغم من أني جائع ومنظر الشعير يغريني ويزيد من ألم الجوع في معدتي الخاوية...

قلت له: سمعت أن إضراب الأسرى سيطول، فهل تضرب عن الطعام معهم؟

نظر إلي نظرته المعهودة، فشعرت كأنه يشمئز من سؤالي، ثم قال بصوته

الأجش:" أنا أتضامن فقط لمدة ثلاثة أيام ثم أرجع لحياتي، وبعدها أستطيع الدفاع عن قضية الأسرى دفاع المجرب لألم الجوع، بعكس المتظاهرين بتبني قضيتهم، وهم لا يعرفون طعم الألم فهم لم يجربوه، فيكون دفاعهم شكليا، بل زائفا، لا يرتقي إلى عظم الحدث...

لكن البعض يتوعد ويهدد بالانتقام لأي أسير يهلك نتيجة الإضراب...

حاول حمار ابني الضحك، لكنه لم يفلح، وبدلا من ذلك نهق نهقة طويلة كاد يقع على ظهره من شدتها...

بعد حديثي مع حمار ابني، ذهبت من فوري إلى البراد وأخرجت ما في جوفه من أطايب الطعام، ألقيت به إلى حاوية النفايات، وأعلنت الإضراب عن الطعام مدة ثلاثة أيام متتالية، ملتزما بمبدأ الحميرية وشعاره: كفى للظلم...!

عورة البيك...

حمارنا اليو م غير ما كان عليه أمس وأول من أمس، اليو م هو يرقص على حافريه الخلفيين، ويمضغ الشعير بتلذذ، وينهق نهيق من يحتفي.
في حقيقة الأمر، سعدت تماما لهذا الأمر، ولأنني رأيت ابني أيضا سعيدا لسعادة حمارنا، كان بالأمس خائفا وقلقا عليه، كما أنني استغربت الأمر، مما حداني بسؤال الحمار عن سبب فرحته المفاجئة، فأجاب مستبشرا باشا: " لقد حقق الأسرى مطالبهم، وانتصروا على الظلم بثباتهم. سعدت أنا أيضا لهذا الخبر...
جلست على مقعدي الخشبي المفضل أمام الزريبة، أقرأ صحيفتي، وبين الفينة والأخرى أرقب ابني يداعب الحمار ويحضن رقبته، فجأة صاح ابني قائلا: " هذا ساعي البريد بالباب يا أبي"، دعه يدخل يا بني، قدم لي الساعي مغلفا مسجلا، قلت في نفسي اللهم اجعله خيرا، للحقيقة، لم يكن خيرا، كان قرارا لإخلائنا من البيت بسبب انزعاج "البيك" من نهيق حمارنا؛ نغص هذا الكتاب علي، فاسودّت الدنيا بوجهي، ما جعل

الحمار يلاحظ ذلك.

سألني الحمار: " ما بك واجم؟"

"البيك" يريد إخلاءنا من البيت.

حنق الحمار وأخذ يضرب الأرض بحافره الأمامي، وصرخ قائلا: " ألا يكفي أنه سارق قوت الشعب؟ ألا يكفي أنه يحابي المحتل، ويدعوهم إلى بيته ويقيم لهم الولائم؟ ألا يكفي بأنه...؟" وأخذ ينهق نهيقا متواصلا، جعل "البيك" يخرج إلى الشرفة نصف عارٍ... وصرخ بصوت يكاد يعلو على نهيق الحمار قائلا: " أسكِت الحمار وإلا أسكته برصاصة من مسدسي هذا - ملوحا بمسدس من النيكل يلمع من وهج الشمس- " همست بأذن الحمار ليسكت فسكت، ثم عاد ونهق، نهق بأعلى صوته، فخرج "البيك" بحالته السابقة نصف عار يلوح بمسدسه النيكل، وأطلق ثلاث رصاصات في الهواء، أنا خفت، لكن حمارنا لم يظهر عليه الخوف، بل أخذ ينهق، وينهق وينهق، و"البيك" من فرط غضبه وقع على الأرض، فبانت عورته، وغاب عن الوعي، فسكت حمارنا عن النهيق، وأخذ يأكل الشعير بتلذذ وفرح المنتصر...

حمارنا...

ابني يحب حمارنا، يستيقظ باكرا يذهب إلى الزريبة، يخرج الحمار، يذهب به إلى الجبل ليرعى، حمارنا نظيف، لطيف، ينهق عندما تمر من أمامه أي أنثى، يهز ذنبه ويرفع رأسه ويفرد صدره كلما اشتم رائحة أنثى أي أنثى ومن أي جنس أو فصيل، نقطة ضعفه الأنثى، يبقى حولها يتمسح بها، ينسى الأكل، و الشرب، شهوته عارمة تجاه الأنثى، لا يسمح لابني أو لأي كان لامتطائه عندما تكون أنثى بالجوار، لون حمارنا أبيض عليه بقع سوداء صغيرة، أذناه كبيرتان، ذنبه طويل ونظيف، ابني يهتم بنظافته كثيرا، حمارنا لم يعد إلى زريبته اليوم، انتظره ابني بفارغ الصبر، قلق على غيابه، لم يكن من عادته التأخر عن زريبته، زاد قلق ابني، لم يكن أمامه إلا أن يذهب إلى الشرطة، بعد أن بحث عنه في كل مكان، في المستشفيات، والعيادات والأندية الخاصة بالحمير، حزن ابني، وأنا حزنت على حزنه، والبيت كله حزن على غياب الحمار، أقمنا ما يشبه المأتم، استقبلنا المعزين، ولبسنا الأسود، وابني ترك شعره شهرين دون

قص، قررت أن أحضر له حمارا آخر، ظنا مني أن الحمير متشابهة، لكن ابني لم يحب الحمار الجديد ولم يرَ فيه شبها بحمارنا. وفي أحد الأيام، رأيت صورة لحمارنا على الصفحة الأولى لجريدة القدس، كتب تحت الصورة أبرز أعضاء البرلمان الجدد... حمارنا صار عضوا في البرلمان... أمس عندما كنت أتحدث مع بعضهم، سألني أحدهم: " كيف حال حماركم"؟

حدثتهم عن حمارنا كثيرا، فأعجبوا بحديثي عنه وأكثر ما أعجبهم طموحه، وثقافته العالية، لدرجة أن بعضهم تمنى أن يكون حمارا مثقفا وطموحا بدلا من كونه إنسانا جاهلا!

أنا لم أستغرب هذا القول! ولم أناقش هذه الحيثية، وعندما عدت إلى البيت، بعد العشاء، مررت على زريبة الحمار، فوجدت ابني يقدم للحمار بعض الشعير، ورزمة من البرسيم، وهو، أي الحمار ممتنع عن تناول الطعام، وابني من شدة حبه بحماره، ظن أنه مريض،، فطلب مني استدعاء الطبيب، فقلت له: ربما ضايقه أحدهم في جلسة البرلمان، فقال ابني: لقد قدم استقالته اليوم، ولم يعد يريد البرلمان، دهشت لقراره المفاجئ هذا، فسألت الحمار عن السبب فقال بالحرف الواحد:"لم يعد بمقدوري تحمل كذبهم، ودجلهم، وبذخهم، وإفراطهم، وتخاذلهم، وتنصلهم من واجباتهم تجاه أهالي الشهداء، والمعتقلين، وتنازلهم عن أبسط حقوق المواطنين وهو الوحدة الوطنية"... أنت تبالغ بالتأكيد،

فنظر نحوي تلك النظرة التي تعريني وتظهر عورات جهلي، خجلت من تلك النظرة، وتأسفت له، بالكاد بعدها صفح عني، لكنه استمر بامتناعه عن الأكل، وابني تضامن معه ولم يأكل، نهق نهقته المعهودة عندما يكون حزينا، وقال بصوت هادئ:" هناك من لم يتناول أي طعام منذ خمسة وسبعين يوما، فكيف تريدني أن آكل؟ لم تعد عندي شهية لأي أكل، ولم تعد عندي شهية لأي شيء، أنا مضرب عن الطعام وعن السياسة،"...

حمارنا كل يوم يعلمني شيئا جديدا، وابني أصبح يحمل أفكار حماره التقدمية.. ونحن والسياسيون، وقناصل بعض الدول الشقيقة والصديقة لم ندرك فلسفة الحمار الثورية...

لحمارنا الحق بعضوية البرلمان

سألت حمارًا معاتبا: كيف هانت عليك العشرة لتتركنا دون سابق إنذار؟ من الذي شجعك على عضوية البرلمان؟

استغرب سؤالي قائلاً: " أنا أحق منهم جميعا؛ أنا أخدم الناس أكثر من أي واحد؛ فأنا الذي يحمل الحطب للتدفئة وأنا الذي يحرث الأرض، وأنا الذي أحملكم على ظهري، وأتنقل بكم من مكان إلى مكان، دون شكوى أو تذمر، ولا تقدمون لي غير فضلات طعامكم، أما هم فلا يقدمون للمجتمع إلا الوعود والكلام على المنابر، والخطب الرنانة، هم يحبون المال حبا جما، ويأكلون ما نزرعه لهم نحن، وفوق ذلك هم الذين يتطاولون على المجتمع بالكذب والبهتان، والظلم...

نحن ،الحمير، لا نعرف الكذب، ولا نحب المال، ولا ننام في الفنادق الكبيرة، بل ننام في زريبة، لا نكلف المجتمع، شيئا يذكر، ولا نظلم، وفوق ذلك نعد ولا نخلف... نحن معشر الحمير، سنحكم العالم بالعدل.... فلا خوف على مستقبلكم معنا، ومن يخالف أو يهادن أو

يتخاذل سنرفسه بحوافر من حديد...

قلت له مداعبا: وماذا عنهن؟

نهق نهقة قصيرة، وقال بصوت خافت: " إنهن بلسم الحياة وشفاء لكل داء، آه منهن" ...!

الأمم المتحدة



قررت الأمم المتحدة، إرسال بعثة تقصٍ، لمعرفة نوايا حمارنا ... فقد احتجت إسرائيل رسميا على حمارنا، وعلى طريقة تفكيره، وبأن لديه أفكارًا تخالف مبادئ السلام، وبأنه ينهق نهيقا يزعج سكان المستوطنات، وطلبت شهادة البيك على ذلك، واتهمته باللاسامية، فقررت هيئة الأمم

عمل حظر كامل عليه. لم تقم جمعيات حقوق الحيوان بالاحتجاج على قرار هيئة الأمم، أما حمارنا فقد زاد من إصراره على مقاومة المحتل الغاشم، وعملائه أمثال البيك والخفافيش؛ عند سماعه للقرار الأممي، نهق نهقة استخفاف، وسخرية من قرار كهذا .. فحمارنا لا يتأثر بحصارهم، فهو يأكل من عشب الأرض، والأرض غنية وواسعة، فما كان منه إلا أن شحذ حوافره، واستعد للبدء بتصفية الخفافيش واحدا واحدا، فنزل فيهم بعجا ورفسا، لم يتوقع أنهم بهذا العدد الكبير، لكنه مستمر برفسهم رفسا موجعا، أما بلطجية البيك، والباكوات الآخرون، فقد يبدأ ببعجهم في مرحلة قادمة، المهم أنه لن يباشر ببعج الاحتلال قبل أن يتخلص منهم، هذه سياسة حمارنا...

حمارنا يسافر إلى الصين...

قرر حمارنا السفر إلى الصين في رحلة ترفيهية، وكذلك ليتعلم الكونغفو، ويسبح في نهر جيانج، ويأكل أكلًا صينيًا، ولكي يقابل (جاكي شان) يمكن يساعده بالتخلص من الخفافيش...

ملاحظة: " لا أقصد الاحتلال بالخفافيش"...

مكااااانك سِرْ

وقف بهيبة أمام طابور من الساخطين، صرخ بأعلى ما عنده، الجميييييع استعد؛ فاستعدوا طائعين، إلى القدس، سِرْ... شمال يمين، شمال يمين، شمال يمين، شمال يمين، شمال ويمين، شماااااال ويمين... غاب الصوت، اختفى، أُخذوا، ذهلوا، بل صدموا، فبقوا في المكان سر، وما زالوا يسيرون في المكان، فقد أتعبتهم الاتجاهات...

إرادة...

ضاع الحلم مرة واحدة ويكاد ضياعه يكون أبديا؛ ضاع في لعبة المتاهات، بين أروقة الأندية السياسية، في زوايا المفاوضات العبثية، غير المجدية، فصاحبنا الذي سبقه كرشه، صار عليه أن يستقل أكثر من وسيلة نقل لبلوغ قمة الكرش، الذي حجب عن عينيه رؤية قضيبه عندما تشتد رغبته للتبول، فيتحسس رأس قضيبه المتهاوي، بأطراف أنامله، فيُغرق يده بسخونة البول المتسلل من بين أصابعه، وقبل أن يشطف يديه بالماء والصابون، يعود منتشيا إلى كرسيه الوثير حول الطاولة البيضاوية التي تجلس على رأسها امرأة شقراء كانت فيما مضى آية في الجمال، مثل زوجها زير النساء، تُكمل توجيهاتها الموسمية، وتُوزع المهام المطلوبة وهي تتأفف من رائحة البول القادمة من يسارها، هو يستمع مزهوا...

ينتهي الاجتماع، فتعود شاشات الفضائيات للابتلاء بصورته السوداء القاحلة، "عفوا" للامتلاء، وأنا أجدد قسمي بمقاطعة الفضائيات، ورجال الإعلانات، وأغنيات الدخلاء، ومنابر شعراء السلاطين، وخطباء

الجلادين، وقضاة السحرة والمشعوذين، وأعود إلى ركني القصي بانتظار من يؤنس قراري السرمدي، أتسلى بتزييت بندقيتي القديمة، إذ ربما يحين اليوم الذي نعود به أسيادا كشجر الزيتون...

طار صوابه...

جلس على كرسيه الخشبي مسترخيا، تناول صحيفته الصباحية بيده اليسرى بعد أن وضع نظارته فوق أنفه الصغير، وهو ممسك فنجان قهوته السادة بيده اليمنى ارتشف رشفة طويلة علها تعيد له رأسه الوحيد، أخذت يده اليمنى تتناوب بين سيجارة (المارلبورو اللايت)، وبين قهوته السادة... فجأة وقف عن استرخائه مرة واحدة عندما وقعت عيناه على خبر في وسط الصفحة الأولى، كاد يذهب بعقله، فوقف وقعد وراح وجاء، ضرب كفًا بكف، رمى بالصحيفة على الأرض وحملها عن الأرض وضعها على الطاولة الخشبية، وتناولها عن الطاولة. نظر إلى الخبر ورمى الصحيفة من جديد، طار صوابه. ضحك بهستيريا وصرخ بغضب، امتلأ المكان بصياحه واستنكاره، احمر وجهه. انتفخت أوداجه. أرغى وأزبد، شتم الدنيا وشتم الزمن، شتم حظه ونصيبه، لعن السلطة. لعن المديرين والوزراء والشيالين والمراسلين والأغبياء.. لا أعرف لماذا يلعن الأغبياء، أن يلعن الوزراء والمديرين والمراسلين، فهمنا! ولكن لماذا

يلعن الأغبياء؟ أتراه يلعن نفسه، لا أدري، ما زال في حالة الغضب، وما زال يلعن كل شيء تقريبا، زوجته التزمت الصمت، وقفت كأنها على الحياد، وقفت غير بعيدة عن الركن القصي من حديقة منزلهما، لم تجرؤ على سؤاله، هي مندهشة خائفة في حيرة من أمرها، هو أمسك بهاتفه النقال يصب جام غضبه من خلاله، حتى خلت جهازه سينفجر غضبا على غضبه، لم يترك رقما من أرقام الخوارزمي إلا وطبعه على صفحة جهاز هاتفه (النوكيا)، خلْت الهاتف سيقفز من بين أصابعه ويهرب إلى الجسر فوق النهر القديم، خلته سيستقر بين يدي راهب يجلس منذ نهاية عصر الهكسوس على ضفاف النيل، بين النوبة وكنيسة الراهب مرقس قرب الإسكندرية، لكنه لم يهدأ بالرغم من نبرة صوته التي خفت حدتها عندما تكلم مع صوت رصين، يبدو عليه شيء من الحزم، خيل إلي أن كل الأشياء في الحديقة تعكرت؛ الورد الجوري وعصافير الدوري، وحبات الزيتون التي تنتظر قطرات من الغيث في تشرين، لم يهدأ ولم يستكن إلا عندما ضرب بهاتفه (النوكيا) الأرض فكسره تكسيرا، وهبط بجثته الضخمة فوق الكرسي الخشبي الذي بالكاد استطاعت أرجله الأربع التماسك تحت هول السقطة، غاب عن الوعي ففزعت زوجته مندهشة، ولم تدر ماذا تفعل، أما أنا فقد استدعيت الإسعاف الذي أعلن عن تعرض الوزير السابق إلى جلطة دماغية أفقدته النطق والحركة، لملمت الزوجة بقايا هاتف (النوكية) الذي علقت في أجزائه المكسرة

بقايا شتائمه، والصحيفة وفنجان القهوة وولاعة السجائر، جلست على كرسي زوجها الغائب عن الدنيا وأخذت تدخن وهي مسترخية...

ذبابة اليوم الواحد...

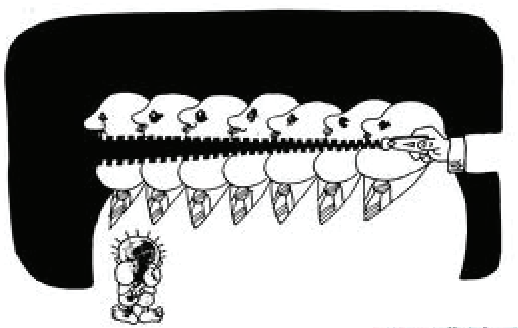
ذبابة اليو م الواحد، تخرج إلى الدنيا بعد أن تقضي عاما كاملا كفترة سبات، لتعيش يوما واحدا بقضه وقضيضه، تعيش حالات العمر من طفولة وشباب وبلوغ وإخصاب وتضع بيضها وتنتهي حياتها، هذه هي ذبابة اليو م الواحد، تؤدي رسالتها في دورة الطبيعة، لها مهمة محددة، يو م واحد تبدأ وتنتج وتتكاثر في يو م واحد، لكن بيضها ينتظر عاما كاملا ليفقص في نفس اليو م الذي ماتت فيه أمها قبل عام لتعيش يومها...أما بعض الناس يخرج إلى الدنيا ويعيش عشرات السنين ثم يموت دون أن يقوم بعمل مفيد في حياته، بل إنه يخلخل دائرة الحياة بغبائه وأنانيته...

سمير الجندي

سألتني:

"ماذا تقول فيمن لو تكلم لا يُحسن الكلام، وعندما يتكلم لا يقدر أن يسكت؟"

أجبتها: أحمق.



على حافة القيم...

جلسنا غير بعيدين عن البحر، في هدوء الليل كنا نسمع الموج عندما يصطدم بصخور الشاطئ الرملية، أحاول بين الجمل استراق السمع لاقتناص ردات فعل الصخور لحظة الاصطدام.. كم هو جميل هذا الصوت! كم هو قاس! جريء! مشاكس! رافض! هادر! ثمة فكرة مجنونة تعبث بعقلي! تدغدغ ما تبقى من قيم! تستفزني، تقهرني، تحولت تلك الفكرة إلى تساؤل؛ لماذا أرضنا بالذات؟ لماذا شعبنا بالتحديد؟

تأملت الإجابات المحتملة عن أسئلتي المحيرة، لكنني في هذه المرة لم أُحل الأمر على القضاء والقدر، والمقسوم، والنصيب.. إنّ الإجابة تكمن في دواخلنا، في تربيتنا، في قيمنا البائدة، في تواكلنا المنفر، في استمرائنا للخنوع والعبودية والذل...نحن نبني قصورًا مشيدة على ماض مستهلك، متناثر بين أوهام الأمل المتهالك، نبني قصورنا على قصائد لم تعد مطاردة، على تراث امرئ القيس، وابن أبي سلمى والنابغة والخنساء ورسائل الجاحظ ومقامات بديع الزمان الهمذاني، ولا يجرؤ

شعراؤنا النظر في معجم القصائد الثورية، تجرأ المعري بقصائده الفلسفية فاتهم بالزندقة، والحلاج علق بحبل التخلف لخروجه عن القطيع ، وابن المقفع دفع حياته ثمنا لوفائه للكلمة والموقف، والقدس لم تعد تتسع لآلام عيسى بن مريم العذراء، وكل الشعراء دون استثناء لم يأتوا بفكرة واحدة تساعد في خلاصها من آلام المخاض...

أنا مقدسي...

جندي احتلالي من أصول روسية، ضخم الجثة، يحمل بندقية أوتوماتيكية، يقف وسط الطريق على مدخل القدس العتيقة في باب الساهرة، أوقف رجلا في الأربعينيات من عمره، صرخ بوجهه: " من أين أنت؟"

أجابه الرجل برباطة جأش: أنا مقدسي، وبيتي في واد الجوز، أعيش أنا وزوجتي وأولادي الستة، وعندي شجرة زيتون رومية، أستخدم زيتها قبل قرون لإضاءة قناديل المسجد، وياسمينة تتدلى على مدخل بيتي يفوح أريجها كلما لا مست أزهارها نسمة مقدسية، وأربع شجرات ورد جوري تتزين فتيات حينا بأزهارها في احتفالات الربيع ، وعندنا بئر في وسط ساحة البيت، ماؤها عذب، وبارد في آب، وعندي كرسي خشبي ورثته عن جدي، يجلس عليه أغلب الأحيان ابني محمد، وفي صالون بيتي مسمكة زجاجية فيها خمس سمكات ذهبية،أحضرتها ذات صيف من يافا، تستريح نفسي كلما تأملت حركاتها في الماء، وفي زاوية الساحة

الخارجية لمنزلنا قبر لأحد مجاهدي صلاح الدين الأيوبي رحمه الله...

ارتبك الجندي، واحمر وجهه الرمادي، وصرخ بكلام لم أفهمه، ولم يفهمه صاحبنا...

ألماني...

ألماني يتبجح قائلا: " نحن الذين قتلنا اليهود، نحن الذين صلبناهم، وحرقناهم".

الفلسطيني: أنتم قتلة، مجرمون، عليكم بدفع ديات لليهود، عليكم اللعنة...

الألماني: هه هه هه هاه، ندفع الديات! سوف تندمون! ليكن...!

دفعوا الديات وما زالوا يدفعون... مرت الأيام، والسنون... شاخ الألماني، وبقي الفلسطيني فتيًا، لم يشخ، لم يصل قط سن الشيخوخة؛ فقد قَتَل آباءه في عز الشباب، واليهودي، استثمر الديات؛ صنع منها آلات قتل وصلب وحرق ... لكنه لم يدفع ديات...

مزيفون...

جلس الشيخ على كرسي صغير من القش أمام باب المسجد الرصاصي، كأنه قطعة من المسجد نفسه، أنامله تعبث بمسبحة صنعها له ابنه من عجم الزيتون، يسبح بها ذاكرا اسمًا من أسماء الله مع كل حبة من حباتها الثلاث والثلاثين- سبحان الله وبحمده- كان موفور الصحة بالرغم من سني عمره التي تجاوزت السبعين، ذقنه بيضاء أنيقة، ويضع نظارة اختير إطارها بذوق رفيع ، يلبس دشداشة بيضاء خرجت للتو من بين يدي كوى ماهر، وفي قدميه نعل جلدي بني اللون... وقفت أمامه مجموعة من السياح يستمعون لدليل سياحي من المستوطنين، أخذ يشرح لهم عن تاريخ بني إسرائيل، ويؤشر ويلوح بأن البناء الذي أمامه من العصر اليهودي الأول وهو عبارة عن كنيس حوله العرب إلى مسجد، فما كان من الشيخ إلا أن وقف وبلغة السياح التي يجيدها أكثر من الدليل الصهيوني، أخذ يوضح لهم بالدلائل والبراهين بأن لا تاريخ هنا لبني صهيون إنما هم الذين يحاولون تزييف التاريخ، بل وعرض عليهم الدخول للتعرف على

المكان وعلى طريقة البناء ومن بناه من سلاطين المسلمين.. فما كان من الدليل اليهودي إلا أن أحضر الجنود الذين اقتادوا الشيخ إلى جهة غير معلومة... فبدا على وجوه السياح الامتعاض، والمسجد ما زال قابعا هنا في قلب القدس العتيقة وعلى بوابته يجلس حفيد الشيخ يتربص للأدلاء المزيفين...

أحمقان...

وقف رجلان بجانب شريط شائك يحيط بإحدى المستوطنات قرب القدس، فقال الأول: " عندما يغادر اليهود المحتلون أرضنا، سآخذ هذا البيت الذي تطل شرفته على الطريق العام كي أراقب حركة السير في الليل وفي النهار". فقال له رفيقه: " لا، أنا سآخذ هذا البيت".

غضب الأول، وصرخ بوجهه متوعدا ومهددا، فامتلأ قلب الثاني حقدا واشتعلت عيناه شررا، وأخذ يضرب الأول بقبضته على أنحاء جسمه، فتناول الأول حجرا وحاول إلقاءه على رفيقه، فبرز من خلف السياج أحد المستوطنين وأخذ يطلق النار عليهما حتى أصيبا إصابات خطيرة...

في نشرة أخبار السادسة على شاشات الفضائيات: " خبر عاجل: "أصيب اثنان من رجال (المقاومة) أثناء محاولتهما اختراق سياج مستوطنة إسرائيلية شمال القدس"...!!!

لم تشخ حجارته...

أمسكتْ بيد طفلها وهي تقطع الشارع إلى الجهة الأخرى. جهة باب الساهرة، وقفت سيارة جيب عسكرية وسط الطريق، نزل منها ثلاثة جنود مشهرين بنادقهم الأوتوماتيكية الحديثة، قبض أحدهم على طفلها والاثنان الآخران أمسكاها كلٌّ من ذراع، حاولوا وضع الطفل الذي لم يتجاوز العشرة أعوام في سيارة الجيب؛ فتجمهر الناس حول السيارة وهي تصرخ من جوف قلبها المحروق وا عرباه... وا إسلاماه... وا مصيبتاه ازداد الجمع جمعا، أخذت النساء بالصراخ، أين النخوة؟ أين الكرامة؟ أين الرجال؟ أين أنتم أيها الأحرار؟ تقدموا يا شباب تقدموا يا رجال تقدموا تقدموا تقدموا...

ابتسم سور المدينة العتيقة، عاد إليه شبابه، فحجارته لم تشخ بعد...

حمامة السلام...

خرجا للصيد يحمل كل منهما بندقيته ويضع حزاما صفت في خاناته العشرين رصاصات خرطوش من عيار ٣٦ ...

اليوم الجمعة، عطلتهما الأسبوعية، تركا هاتفيهما في البيت بعد أن أغلقاهما، تفاديا لإزعاجات العمل، لبسا ملابسَ بلون التراب، وأحضرا بعض الماء ولم يحضرا معهما زوادة أو أي نوعٍ من الطعام، على أمل أن يأكلا مما يصيدان، لكنهما أحضرا سكينا وخرطوشا ونظارتيهما الشمسية ولم ينسيا قبعتيهما لتفادي أشعة شمس أيار...

صعدا فوق الصخور ونزلا أودية يلحقان بطيور يحل صيدها، لكنها كانت تتوارى خلف جدار عال، فيعودان للبحث في مكان آخر... هما والطيور بين مد وجزر، تظهر حمامة وتتوارى خلف حاجز أو جدار... إلا أن لاحت لأحدهما حمامة بيضاء ناصعة، استراحت من عناء الطيران فوق سارية علم أزرق ثبت على حافة الجدار، فباغتها "أخينا" برصاصتين متتاليتين، فسقطت بين قطع كبيرة من الصخور، هرولا نحوها ليجداها

في النزع الأخير، وقد تخضب ريشها بلون الدم القاني... صرخ رفيقه قائلا: " ويلك لقد قتلت حمامة السلام" حاولا إنقاذها بكل السبل، استخدما طرق الإسعاف الأولي، استدعيا الإسعاف لكنها فارقت الحياة على معبر قلنديا العسكري...

تواصل الأجيال...

مررت برجل يجلس أمام حانوته في البلدة القديمة، وكان واجما، مستندا إلى طاولة صغيرة ومتكئا على كف يده. أتذكّر هذا الرّجل منذ كنت صغيرا.. حيث كنت أعجب من كثرة الناس الذين يصطفون في صف طويل بانتظار دورهم لتصليح بوابير الكاز، وهو اليوم يجلس، وقد غطى الشيب رأسه، ألقيت عليه التّحيّة، فدعاني للجلوس على كرسي من القش.. لبيت دعوته، ثم سألته: لماذا يا عمي الحاج لا تغيّر ولا تبدّل في تجارتك؟ فدكانك في وسط السوق، والأقدام متزاحمة؟

قال: " أنا لا أعرف شيئا غير عملي هذا، والعمر ما بقي منه الكثير".

قلت: الأعمار بيد الله يا سيدي، وقالوا فيما مضى: "زرعوا فأكلنا ونزرع فيأكلون".

فقال: ما علينا يا بني، طمئني عن والدك، كيف حاله؟ منذ زمن طويل لم أصدفه، فهل هو بخير؟ الحمد لله بخير يا سيدي لكنه لا يخرج كثيرا من البيت...

رحم الله أيام زمان، كانت الأيام أجمل، والناس أجمل، والأولاد يحترمون آباءَهم، اللهم أجرنا من هذه الأيام ومن مصائبها...

تركت الرجل بعد أن شكرته، وذهبت إلى محل العمد لشراء نصف كيلو من الحلاوة.

بعد أقل من شهر صادفت جنازة مهيبة، وكانت جنازة الرجل- رحمه الله-...

في زيارتي الأخيرة للسوق استغربت الضوضاء التي تعم المكان، كانت أصوات صخب وضجيج، وهذا ما يسمونه موسيقى الشباب، وكلما توغلت في السوق زادت الأصوات ضجيجا وإزعاجا، وبلغ الضجيج مداه عند حانوت صاحبنا المرحوم، فقد تحول الدكان إلى محل لبيع " الكاسيتات" ... ترحمت على الرجل مرة ثانية... وتركت المكان بأسرع ما يمكن...

وجود...

في الأقصى قبل صلاة الظهر بساعتين تقريبا، كان غسان يجلس على مسطبة بجانب دار الحديث، المكان هادئ، والشمس دافئة بعد يو م من الأمطار الغزيرة، استسلم غسان لأفكاره المجنونة، فراح يجول في أروقة نفسه يتذكر الأصدقاء والأحبة، يتذكر زملاء الدراسة.. منهم مَنْ وُفق في حياته وصار تاجرا كبيرا أو طبيبا أو عالما، ومن خانته الظروف، ومن مات ومن بقي مثله على حافة الحياة، ومن سلم من براثنهم ومن فني سحقا بأنيابهم الزرق، دار به الزمن عبر سنين طويلة، وبينما هو كذلك إذ بمجموعة من اليهود يستبيحون ساحات الأقصى بأقدامهم النجسة، بدأوا يصرخون ويعربدون ويشربون النبيذ الأحمر في كؤوس زجاجية، ثم يرمونها على بلاط المسجد، وحولهم مجموعة من الجنود المدججين بالسلاح، قام غسان من مكانه، وقف حائلا بينهم وبين المكان، لم يصرخ ولم يتفوه بحرف واحد، وقف بجسده فقط...وظل واقفا إلى أن انصرفوا...

تفقُّد

هذا المساء، في البلدة القديمة، الأقدام تتزاحم، والأكتاف تتلامس، والوجوه تتشابه، القناطر تتوشح بأنوار القناديل الرمضانية، وأنفاس الناس تجتر هواء البلدة العتيقة المشبع بالبرودة، وأنا أبحث عن وجه كنت أظنه هنا، ربما غرق في لجة الزحام الرمضاني، ربما نفي مع المنفيين، ربما لم يكن يوما سادنًا من سدنة البلدة، ربما شاخ مثلما الطرقات شاخت، ربما يسكن داخل إطار معلق على جدار بيت، في حوش الغزلان، ربما غاب هناك مع الغائبين الهائمين بين نهر وبحر وقرار، ربما نبت زهرا مع شقائق النعمان... أتعبتني الحيرة، وكدت أمل الوجوه المستديرة، جلست في مقهى، طلبت فنجان قهوة سادة.. لحُسن حظي تَعرَّف عليَّ صاحب المقهى، فعزز بعضا من معنوياتي الغائبة، وعندما سألته عن صاحبي؛ قال بالحرف الواحد: " أنا لم أره منذ الخامس من حزيران"...

نفثت دخان سيجارتي، وارتشفت ما تبقى في فنجاني، ثم طفقت عائدا إلى أحزاني...

غياب...

خرجت من بيتها على عجل، وصلت محطة الحافلات في باب العمود، نظرت إلى ساعة يدها الذهبية، تلفتت صوب الاتجاهات الأربع ، عادت لتنظر إلى ساعتها، أخذت تتحرك هنا وهناك ولا تفارق النظر بين ساعتها والاتجاهات الأربع ، صوبت نظرها تجاه طريق نابلس، نظرت إلى نهاية الطريق المستقيم، لا أثر له، صارت تتحرك بخطوات كثيرة نحو منعطف في وسط طريق نابلس وتعود بخطوات أسرع إلى مكانها قرب محطة الحافلات، تحاول الاتصال به على هاتفه النقال للمرة الألف، لكنه مغلق، تتمتم بكلام سريع ، تصك على أسنانها، الشوارع شبه خالية على غير العادة في مثل هذا الوقت، السماء مكفهرة، لكأنها لا تشعر ببرودة الطقس، لم ترتد معطفها القطني، ولا حذاءها الطويل، تكاد تكون الشوارع خالية والمحطة خالية أيضا من الحافلات الخضراء والبيضاء، السكون مطبق على المدينة؛ لا أصوات للباعة أو السيارات، تنظر إلى السماء كأنها تستغيث بالإله أن يعيده لها سليما معافيا.. بان جزء من

شعرها الكستنائي عندما انحسر منديلها وهي تتضرع إلى الله أن يعيده لها وأن يثنيه عن قراره، مرَّ الوقت متسارعاً، فزاد جريان الدم سرعة في عروقها وارتفعت دقات نبضها لتطغى على المكان، تُسمع أصوات زمامير السيارات بين الفينة والأخرى من بعيد، وأحيانا أصوات سيارات الإسعاف، أو سيارات الشرطة وحرس الحدود، وفي كل مرة تسمع تلك الأصوات كانت تلتهم الطرقات بناظريها، لم تعد ترغب بالنظر إلى ساعتها؛ إذ لا معنى لذلك، إنما انتظم نظرها باتجاه طريق نابلس، تلك الطريق التي اعتاد القدوم منها...

لم تترك المكان ولم يغادرها القلق عليه، قررت الانتظار إلى أن يأتي، فلم يخلف معها موعدا قط، تناهى إلى قلبها شعور غريب، ربما يكون سعيدًا أو حزينًا، ربما يكون فيه البشرى أو الألم، لم تعرف كنهه، ازداد السكون سكونا، والطرقات فارقها الناس إلا من دعته الهمة للنزول إلى الأقصى لصلاة الظهر، كادت نفسها تستكين لولا صوت هائل ارتجت له البنايات الخمس التي حولها وعلت على إثره صافرات الإنذار في السيارات الحديثة المتوقفة... تركت المكان بأسرع ما تستطيع، أدارت مفتاح التلفاز وتسمّرت أمام نشرة الأخبار...

ثبات...

انهال عليه جنود كيان الإرهاب بكل ما يمتلكون من حقد وهراوٍ وبنادق، كانوا كُثرًا، وهو واحد وحيد، انقضّوا عليه كحيوانات الغاب المفترسة، لكنه لم يصرخ، ولم يئن.. ثبت، فقهرهم بثباته، صمد، فأعجزهم صموده. صرخوا وعربدوا، فأيقظوا أهل عقبة شداد بصراخهم. نزل الرجال والنساء من منازلهم، تجمعوا حول الجنود الذين صمتوا مرة واحدة، فقد رأوا الإصرار والتحدي في عيون أهل الحي، مشى الرجال نحو الشاب، وكأن الطير على رؤوس الجنود فلم يبدوا أية حركة، أعانوا الشاب على الوقوف فوقف مبعدا الأيادي عنه، وقف كالأسد ينظر بعينين ثابتتين إلى الجنود، فتلعثموا في انسحابهم من المكان، ولم يعودوا إلى الحي ثانيةً...

صمود...

استيقظت مبكرا، على غير عادتي، تكاد الشمس تعلن عن ولادة نهار جديد، التلال خضراء، الأغنام السوداء تتسلق كل شيء، فتاة بدوية تحمل عصا رفيعة تضرب بها أغنامها كلما حاولت الاقتراب من سور بيت جارنا "أبو سليمان". الأغنام تحب شجرة الياسمين المستلقية بدلال على السور الحجري. أنا أحب الياسمين، أحب رائحته الفواحة، ولون أزهاره البيضاء...

مريم تحب الياسمين أيضا، كانت تعمل من أزهاره البيضاء أكاليلَ تزين بها صدرها كل مساء. مريم أحبت الهدوء، اطمأن قلبها على ترانيم راهبة احترفت الإنشاد في كنيسة القيامة أيام الآحاد، أسكنت في عينيها أحلام الطفولة، واحتضنت بين ذراعيها طقوس نيسان...

اليوم، مثل الأمس لا أحد يجعلني أبتسم مثلما تجعلينني أنت، سأحبك حتى تجف المحيطات، ولن أبرح مكاني؛ باق هنا بانتظار الطيور المهاجرة،

لن أتنازل عن انتظاري مثلما السماء لا تتنازل عن سقوط الأمطار في تشرين، لك المجد يا مريم، لك قبلاتي المتجددة كل صباح، لن يبقى حزنك حبيس أنفاسك بعد اليوم؛ فقد ضاق الفضاء بغضب المعذبين، وتفجرت براكين الانتظار لتحرق بحممها أحلام الغرباء...

لماذا اللون الليلكي؟

لأنه الأجمل، الأرق، الأعذب، الأصفى، وأكثر...

وماذا عن الرمادي ؟

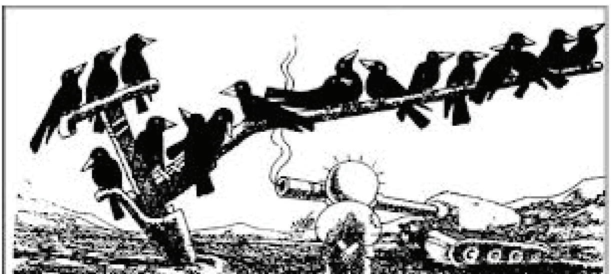
لون المحتل، بارد، صديد، قبيح، ظالم، قاتم، تقشعر له

الأبدان...

وتأباه النفس...

أنا أكرهه...

وأنت؟!!!!!!!!!!



مقلوبة...

الأسير : "أمي أشطر وحدة بتعمل المقلوبة بحارتنا".

- "أنا كمان أمي شاطرة بالطبخ، بتعمل مسخن لا يُعلى عليه..."

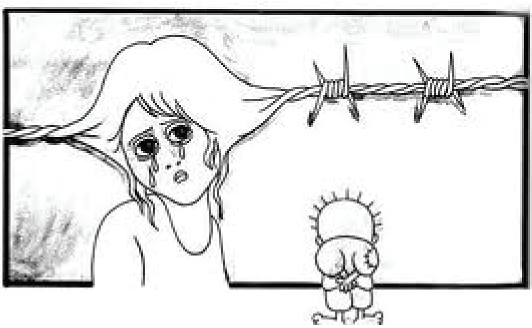
- "آه بطني بيوجعني، صارلنا ١٧ يوم مضربين... والله ما نفسي إلا بقطعة خبز مع زيت وزعتر..."

-"فكرك برّة الناس واقفين معنا؟!"

- "أكيد واقفين معنا، فشعبنا شعب الجبارين..."

- آه... إن شاء الله... الله يعينا...

- آمين....



لم يعد دوي المدافع يخيفه،

ولا أزيز طائرات أف ١٦ يرعبه...

نام نوما عميقا، لم يصح منه إلا على صرخات أطفال جيرانه والنار تلتهم طفولتهم،

فمات الكون أمام ناظريه

مرة واحدة وإلى الأبد...

في الصف الثاني الأساسي...

لبست زيها المدرسي على عجل - بالرغم من أنها استيقظت مبكرا - مبتهجة بالذهاب إلى المدرسة. حملت حقيبتها المدرسية التي تئنّ من تكديس الكتب والدفاتر وبعض أقلام ومسطرة بلاستيكية، ونزلت مهرولة إلى مدرستها التي تقع على بعد شارعين.. دخلت البوابة الرئيسة اصطفت الطالبات بعد قرع الجرس يدويا، وعندما دخلت غرفة الدرس لم تجد سارة رفيقتها المقربة على مقعدها، بل كانت حقيبتها نصف المحترقة وعبارة كتبت بلون الدم: " الشهيدة سارة الدلو..."



بكاء

كان وحيداً، يقف على حافة الطريق، الازدحام شديد يو م الجمعة، كأن الناس جميعا جاءوا إلى القدس. هو خائف مذعور، لم يسمح له جنود الاحتلال البغيض بالمرور إلى بيته في البلدة القديمة، حاول بعض الشبان التحدث مع الجنود بلغتهم دون جدوى.. الولد يبكي بحرقة، والجنود لا يأبهون ببكائه، الشبان غاضبون مقهورون، أحدهم يمسد على رأس الطفل الذي لم يتجاوز السابعة من عمره، يحاول تهدئته، وشاب آخر يقول: " اتركوا البكاء يخلصه من طفولته..."

فقد بصره...

أنت ترمي علينا الحجارة كلما مررنا بهذا الحي، فهل تعتقد أن حجارتك هذه ستمنعنا من المرور؟

نعم، فأنا على يقين من ذلك...

ولكننا سنطلق النار عليك في المرة القادمة...

أطلقوا النار كيفما شئتم، وأنا سأرميكم بحجارة من سجيل...

احمر وجه الضابط اليهودي من شدة الغضب... وضرب الفتى بقبضة يده بعد أن قيده بالسلاسل...

وفي اليوم التالي تلقى الضابط اليهودي حجرا شج رأسه فأذهب ببصره أثناء مروره بالحي، وقد كان على يقين بأن الفتى في الأسر...

بساطير الطغاة...

في الصباح قبيل ذهاب العمال إلى أعمالهم، خرج من البيت يحمل حقيبته المدرسية المكدسة بالكتب والدفاتر وبعض أحلام طفولية، يلبس زيه المدرسي الأزرق، تكاد تكون الحقيبة أثقل منه وزنا، يحملها على كتفه المتواضع، ويسير بخطى سريعة كي لا يفوته طابور الصباح؛ فقد أعد كلمة ليلقيها في الإذاعة المدرسية.

وقف أمام الطابور، ووجهه المشرق ملاصق للميكرفون، وبيده ورقة عليها كلمات لكنه تجاهلها لا إراديا، فلم ينظر إليها، كان يحفظها عن ظهر قلب، حملها برأسه الصغير طوال الليلة الفائتة، يرددها في أحلامه، فما كاد أن يبدأ بالكلام حتى اقتحمت مجموعات كبيرة من جنود الاحتلال يضعون أقنعة واقية من الغاز.. أمطروا المدرسة بقنابلهم الدخانية، زرعوا الفوضى بالمكان، طارت الورقة من يد صاحبنا، وتبعثرت الأحلام الصغيرة من حقائب الأطفال التي عبثت بها بساطير الطغاة، وسُمعت صرخات التلاميذ عبر الإذاعة المدرسية...

ضجيج...

نزل إلى الشارع مصدوما حافيا، يبحث عن مصدر صرخات أفزعته، وأيقظته من عميق نومه، لم يجد أحدا في الحارة؛ كانت خالية تماما في هذا الوقت المبكر، هدأ بعض الشيء. عاد مسرعا إلى غرفته، وما أن وصل إلى سريره حتى عاد الصوت، فكرر ما فعله في المرة الأولى، ولم يجد شيئا أيضا.. رجع إلى بيته مندهشا مستغربا خائفا، حشر نفسه بين الفرشة واللحاف القطني وحضن وسادته الباردة، فقد أدرك أنها نفس الأصوات التي سكنت رأسه عقب استشهاد صديقه في ديسمبر قبل خمسة أعوام، لم يغمض له جفن، الأصوات تتلاعب في رأسه، تنقض عليه كلما اقترب منه النعاس، لكنه لم ينهض من فراشه، بل تقوقع داخل نفسه وأخذ يرتجف وحيدا...

أين تريد...؟

أبحث عمن يسير معي إلى القدس، يكون مستمعا جيدا، مصغيا لما أقول، صبورا، متفهما، شكورا...

أنا أسير معك.

لا، فأنت مستمع جيد، ومتفهم، ولكنك غير صبور...



رمضان ولىَّ...

رمضان في القدس، وأيضا في الخليل، رمضان هذه السنة مثل كل السنوات في كل مكان، الناس يتزاورون، يتشاركون طعام الإفطار، حساء الخضار، أو البصل، أو الفريكة مع قطع الدجاج، يصطفون خلف الإمام لصلاة المغرب والعشاء وتراويح رمضان... رمضان في القدس، في الأقصى، في البلدة العتيقة، رمضان في شارع الواد، في سوق خان الزيت، في سوق العطارين، في سوق البيزار، في سوق اللحامين، رمضان كنَّس اليهود من القدس، حرَّرها، رمضان يُحرِّر القدس من براثنهم في كل عام...

رمضان ولىَّ... عادوا إليها يحملون أحقادهم، عادوا إليها يحملون مؤامراتهم...

القدس تعود إلى خوفها...

وقاحة...

ليلة الأمس، في الأقصى، هي أول مرة تُحيا هذه الليلة المباركة.. يتزاحم الناس، تتقلص المسافات بينهم، الأشياء تتشابك، الأكتاف تتلاصق، الأدعية تتشابه، النفوس لا يعلم بأمرها إلا الله! المؤمن الصادق والمنافق، الغني والفقير، الرجال والنساء، الأطفال والشيوخ، الصبية والصبايا، الدفء والبرودة، صوت الإمام وصوت بائع القهوة، متوضأ الرجال ومتوضأ النساء، وجوه مستبشرة وأخرى كاظمة، عيون دافئة وعيون رمادية باردة... في قبة الصخرة اصطدمت بإحداهنّ امرأة في الأربعينيات، كادت تهشم ترقوتها من شدة الصدمة، أكملت طريقها لم تأبه لها، ولم تنظر تجاهها، فصرخت الفتاة قائلة: "قولي آسفة"!! فقد كسرت عظمي...التفتت إليها جاحظة عينيها، وزامّة شفتيها، وقالت: " من أنت لأقول لك آسفة؟" والله لو كنت " أبو مازن ذات نفسه ما قلت لك آسفة".فوجئت الصبية من ردها، فحملت وجعها ومالت عنها كأنها لم تعد تراها...

أي عيد هذا العيد...؟

قالت له: « كل عام وأنت بخير. « نظر إليها مستغربا، متعجبا، حانقاً، وقال بصوت غاضب: "أي عيد هذا؟" عُيد من؟ عيدك أنت أم عيد القدس أم عيد النكبة أم عيد حزيران أم عيد الجدار أم عيد المستوطنات أم عيد إسرائيل أم عيد بوش وأوباما وكوندليزا رايس أم عيد الوجع اليومي أم عيد البيوت المهدمة أم عيد هويتنا المطموسة أم عيد الإخوان مشعل والزَّهَّار؟... استفزتني ردة فعله، فقلت: رفقك يا صديقي فقد قسوت عليها !!

أجابني: « هي الدنيا يا صديقي، انظر إليها بمنظار الحقيقة، فأي الألوان ترى؟«

عندها أغلقت دفتري وقررت أن أكفَّ عن الكتابة...

مطر أسود في العيد...

كنيسة القيامة تحتفل بميلاد المسيح، لبست القدس حلتها القشيبة احتفاءً بالمناسبة، عمر صديقي الجميل يلبس ملابس العيد بانتظار "سانتا كلوز".

لم يأت " سانتا كلوز" هذا العيد أيضا؛ فقد صادر الحاجز العسكري كيس هدايا، وقتل غزالته وحرق عربته الخشبية الأسطورية، وتبعثر دخانها فوق المدينة، فتساقط مطر أسود.. ذهبت بهجة العيد عن المدينة العتيقة، وبقي الحاجز وبقي الجدار ونفد صبر عمر صديقي الجميل...

من الذي سيمنعهم؟

منذ زمن طويل لم تزره ! ألم تفكر بالذهاب إليه؟

لا، فأنا متعب، والعمل يأخذ كل وقتي، حتى أولادي لا أراهم إلا صدفة...

عجيب أمرك! تقضي أوقاتا طويلة أمام الحاسوب، تتسكع بين صفحات (الفيس بوك) وتقول لي العمل يأخذ كل وقتك؟! إنك أعجب من العجب!!

آه... نعم، أنا أجلس أحيانا أمام الحاسوب، ولكن معظم وقتي في العمل، ولا أجد الوقت للنزول إلى المدينة العتيقة، وزيارة الحرم... ربم أنزل يوم الجمعة...

ربما لا، هذا كلام غير مفيد، أنا أنصحك بزيارة الأقصى زيارة وداع، إذ سيحوله الصهاينة إلى حديقة عامة، وعندها قل على الدنيا السلام...

وهل سيجرؤون؟!

ومن الذي سيمنعهم؟

لم يعد ما نحلم به...

في جلسة حنين قلت لها وقد جلست قربنا فتاة عليها ملامح الوطن: في هذه اللحظة يجتمع الواقع مع الحلم والحنين.

كانت كلماتي عابرة. قلتها بلحظة دفء لا أكثر. لكن الفتاة التي تنتظر على مقربتنا، تنهدت بأنفاس أحرقت الفضاء بلهيبها، فاتسعت المسافات وتغرب المدى. ثم قالت بصوت تملؤه حسرة:

لم يعد ما نحلم به.

ساد صمت مطبق؛ فلم نعد نسمع إلا خفقات قلوبنا المتداخلة، كل منا نحن الثلاثة ورابعنا موظف الاستقبال في تلك الدائرة الباهتة الألوان. كلمات الصبية أعادتني إلى الفصل الأول من سيرة الوطن... أعادتني إلى قافلة النساء اللواتي يحملن على رؤوسهن بعضاً من بيوتهن، ويحملن بين أيديهن أكواماً من فلذاتهن الذين لم ينطقوا أحرف الوطن

بعد، وفي عيونهن دمع، وخوف، وصور حية لمنازل لم تجد السعادة قط، وخلفهن رجال يحملون هموم الفراق، ومعاناة الهزيمة، وفتية تحار السماء بأسمائهم.

كنت أظن بأن تلك المنازل لم تزل حية في عيون النساء، والرضع الذين لثموا الحنين من أثداء أمهاتهم المعذبة.. ما زال الدم الذي يجري في عروقهم مجبولا بترياق الصمود، والرجال الذين كانوا شيوخ أقوامهم، صاروا بقايا وطن يتكئ عليه الشباب حين يغترب المكان. لكن أنفاس صبيتنا الحارقة، كادت تفقدني الأمل.



رحل زمان العشق...

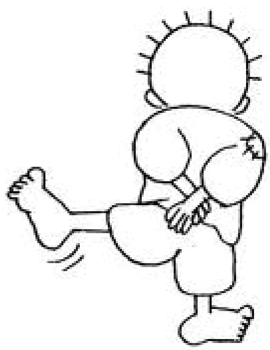
لم يبقَ مكانه... صار بعيدا، يكاد يكون بلا أثر، ربما يكون أثره موجودًا، ربما يشاركنا الحلم من بعيد، لكنني لا أراه، ولا أحسُ بوجوده، رغم أنه عاهدني على الوفاء.. أنا أستمتع عندما أتذكر كلامه، ونبرة صوته الرائعة، وهو يسرد أمامي القصص المثيرة عن حيّنا القديم في البلدة العتيقة، لم أعرف عنه إلا الصدق والأمانة، كما أعرف عنه أشياء كثيرة أخرى؛ بأنه كريم جميل السجايا، رؤوف، رقيق المعشر، وأنه خال من الأحقاد حتى من ألد أعدائه...

رحل كالزمن، لكنه رحل هذه المرة دون وداع، كان في الماضي يتنقل بين الأحياء، ويعود في نهاية الأمر إلى حيّنا، كان يتنقل بين البلدان العربية، ويعود محملا بالقصص الجميلة، كنا نجلس حوله ساعات طويلة نستمع بشغف الأطفال إلى قصصه المثيرة، كنت أعجب بنبرة صوته الدافئة، وهو يحدثنا عن مغامراته الطريفة. ولما غير اتجاه بوصلته، وسار نحو الغرب على سفينة بخارية، تاركا قاربه الشراعي في ميناء يافا، طالت

غربته، وتهتك شراع قاربه في الميناء بعد أن عبثت به عواصف السكون المخبأة تحت أمواج الحقد المنبعث من أنياب الوجوه الرمادية التي استوطنت جحور القوارض في الميناء العتيق، أدركت حينها أن عودته ستطول هذه المرة، وربما لن يعود.

أخذ الأفق البرتقالي يشدني إلى أطراف الأمل، صرت أرقب البحر والسماء وشمس الغروب البعيد، كان يحدوني الأمل من جديد، كلما رأيت بوادر الغضب المنبعث من تربتنا الحمراء في القدس ويافا والجليل الساحر بطلته الأسطورية على ضفاف الوطن السليب... أنتظر على حافة الزمن المتعب بالانتظار، والأمل يظهر ويتلاشى دون ملل... لكنه لم يعد بعد، وأنا لم أسأم الانتظار...

في الماضي البعيد، كنت رساماً،
كانت الألوان تصبح بيدي نساء و رجالا...
وتصير الحقول خضراء...
ورمال الصحراء ذهبا يلمع مع وهج الشمس...
اليوم
أنا بلا ألوان...



زكريا...

عند الظهيرة، في منتصف الأسبوع، أول كانون الثاني، "المربعنية" تتستر خلف شعاع شمس خجولة تداعب بأشعتها سور المدينة الجريح، جلست في مقهى باب العمود أرتشف فنجان قهوة شقراء تنعشها حبات من الهيل الهندي، أعشق هذه اللحظة مثلما أعشق المدينة.

زكريا شاب مقبل على الحياة، يبادلني التحية من بعيد، ظننت الزمن أنساه اسمي، لكنني أعجبت بذكائه وبذاكرته الكريستالية النقية. بادلته التحية بأحسن منها، ودعوته لمشاركتي اللحظة الحلوة وقهوتي الشقراء وشمس نهار مقدسي ولا أجمل!

لبى دعوتي بسرور كبير، لكنه أصر على إحضار خبز وفلافل من الهدمي لعلمه بمدى عشقي للفلافل، نزلت عند رغبته، فقام من فوره لإحضار الطعام.

الهدمي، ليس بعيدا، لكن زكريا لم يعد، والوقت يمضي سريعا وهو لم يأت، قلقت عليه كثيرا، وقفت أنظر باتجاه الطريق.. ثمّ أجلس على طرف

الكرسي البلاستيكي، وأقف من جديد...

زاد قلقي عليه، اعتراني شعور غريب لم أسترح له، نزلت درجات المقهى الخمس، توجهت إلى أول الطريق، الناس ينظرون إلى جهة السور الخلفية.. أخذني الفضول إلى ذلك الاتجاه، كان الجنود ملتفين حول امرأة عجوز تبيع خضارًا في سلة من القش، يحاولون مصادرة خضارها وكان زكريا يقف بصلابة الشباب يحاول جاهدا منعهم عن غيهم، حينها ابتسمت في داخلتي، فقد أيقنت أن المدينة بأيد أمينة...

عزام...

تعافت المدينة شيئا فشيئا بعد اقتحام المستوطنين اليهود لأسواقها، وتدنيسهم لبلاط شوارعها.

سرتُ في جولتي الصباحية المعتادة، لكنني اليوم بعد أن تناولت إفطاري في مخبز أبي علي على أطراف عقبة الميلوية، ونصف أوقية كنافة عند جعفر، قررتُ السير باتجاه سوق العطارين لزيارة صديقي العزيز عزام، هذا الصديق الذي لا يغادر سوق العطارين إلا ما ندر.. هو رجل في منتصف الخمسينيات صامد مرابط، أنجب من البنين تسعة ومن البنات ثمانيَ، نعم، أسرة كبيرة، لكن أُسرته الأكبر هي القدس ومن فيها.

كان يجلس خلف طاولة صغيرة في نهاية دكانه المتواضع، أمامه منفضة من الستانلس وبين إصبعيه ترقد سيجارة تكاد تلسع جلده بنارها، قفز من مكانه كمن لسعته الدهشة حين وجدني أمامه، فعانقني عناق المشتاق، جلسنا ندخن ونشرب القهوة الشقراء السادة، نتأوه مرة ونتنهد مرة ونزفر مرات، تداخلت أحاديثنا لكنها لم تغادر المدينة العتيقة، ثمة أمر

مهم عليك الاطلاع عليه قال لي، وقام من فوره ومشى بي تجاه سوق الخواجات، صعدنا سلماً لولبياً من داخل أحد الحوانيت القديمة، السلم يؤدي إلى سطح السوق، يطل السطح من جهته الشرقية على قبة الصخرة المشرفة والمسجد الأقصى، ومن الغرب يطل على كنيسة القيامة وبرج الكنيسة اللوثرية، ومن الجنوب على حي الشرف، ومن الشمال على سوق خان الزيت ودير الأقباط، السطح محاط بدرابزين حديدي لون بالأزرق، ومسجد السوق تبرز مئذنته بشكل متناسق مع الأبنية القديمة، أخذ صديقي يعدد البؤر الاستيطانية المزروعة كخلايا سرطانية في جسم السوق، ويبين بطريقة تدل على خبرته في معايشة أمر الاستيطان الخبيث في المنطقة، المستوطنون الأشرار تمركزوا على أسطح المحلات التجارية، يعيثون فسادا، يشوهون المكان، وينتهكون الأصالة التاريخية.

ما يقلق صديقي ويقلقني كثيراً، أن لا أحد يتحدث عن هذا الانتهاك الخطير وهذا الوجود السرطاني الذي ينهش التاريخ نهشا...

أحد المستوطنين باللباس الأسود الذي يتماهى مع قلوبهم يسير بحرية كمن يملك المسير فوق أسطح سوق العطارين وسوق اللحامين وسوق الحُصر وسوق الباشورة الذي يعد تاريخيا نقطة الصفر للمدينة العتيقة، يسير بحرية قمعية، يصعد السلم الحديدي المثبَّت على جدار أحد حوانيت سوق الحُصُر، متجها إلى بيت صنعوا له بوابة من جهة السطح، نظر إلينا شذرا فنظرنا إليه مشمئزين؛ فرائحة الحقد تنبعث منهم فتسمم

الجو تسميما، أصابتني غصة كادت تؤدي إلى الكآبة لولا أن صديقي أنقذني بابتسامة الواثق بأن الحال لن يدوم...

عدنا أدراجنا دخنّا العديد من السجائر نفثنا بعضا من هموم القدس مع دخاننا، ثم ودعته على أمل لقاء قريب...

أبو منصور...

أبو منصور شخصية مقدسية لا تنسى، اعتاد الجلوس على مدخل شارع الواد المؤدي إلى الأقصى الشريف، تحديدا على تقاطع عقبة الميلوية مع الواد وخان الزيت، كانت جلسته تشبه وضع الجنين في رحم أمه، حافي القدمين، لحيته غير طويلة وشعره كث غزاه الشيب، يلبس ملابس نظيفة نوعا ما، لكنها سرعان ما تتسخ بسبب جلوسه على أرض الطريق، وقفت يوما محاولا فهم ما يحدث به نفسه، هو يتكلم بكلام غير مترابط يحدث نفسه أو يحدث الفضاء، يمر الناس من أمامه غير عابئين بما يقول، بل غير عابئين به، فقد اعتاد الناس على وجوده في طرقات المدينة، وهو أيضا غير عابئ بالناس وكأنه لا يراهم، في ذلك اليوم وقفت قبالته وكنت عائدا من مدرستي، حاولت فهم ما يقول،فلم أستطع استيعابه في حينها، لكن كلماته سكنت رأسي المتعب منذ ذلك الوقت، فقد سمعته يقول: (اليوم كانت أم خليل واقفة على درجات باب العمود، الله يرحمه أبو حسن ترك عصاه في البيت، والبيت بعيد، انهدم فوق السرير، والولد مش فاهم

يحط الكتب في الطنجرة ويأكل العدس، أنا رايح السينما بدي أحضر العرس بس بدلتي انمزع بنطلونها و شربت القهوة مع الزلابية، والسوق ملان ملان يهود، الله يوخذوا حسين جابيلنا الدّور، وإحنا نايمين أكلنا روح الخل، سعيد ابن أبو اسكندر راح جهنم، هيك أبوه قال، بس أنا بعرف وين راح ، والبنت المفعوصة تجوزت النجار الكلب، والله منيح أبو حاتم أعطاني ساندويش وحبة فقوس، بدي أروح أنام زيهم، نايمين وهذا السوق بطل منيح، كله كلاب وصراصير وسحالي، وأنا خايف بديش أروح بديش أروح بدي أضل هون أنا بحبها). هذا هو أبو منصور كانت عنده رؤيا لم تكن عند الكثيرين...

مريم...

مريم حبيبتي، طيبة، رقيقة، بيضاء ناصعة، قلبها كبير، يتسع للكون، إشراق وجهها كل صباح يبعث الأمل في النفوس، وعند المغيب تتعانق أحلامها العريضة مع طيور اللقلق المهاجرة، ليس وحدي من يحبها في هذا الفضاء، إخوتي يحبونها وأخواتي يعشقنها، وجيراني كل جيراني يحبونها؛ النساء، الأطفال، الشباب، الشيوخ... الغرباء يحبونها، هم يقولون بأنهم يحبونها، وأنا لا أصدقهم، أتخيلهم يحلمون بعشقها، فكلما اقتربوا منها، تميل بوجهها عنهم...

زرتها كعادتي، يوم الأحد، جلست غير بعيد عنها، أطرقت برأسها حياءً من دموعها، لم يتسن لي كفكفة دموعها، قلت مستغربا: من حظي بمكانتك،لا بدَّ وأن يكون فرحا سعيدا!! فلماذا الدموع؟

ولماذا الحزن المزروع في عينيك يا حبيبتي؟

نظرت بعينين تعبتين وقالت: " هي أقوال، طبل، وزمامير، وفتاشات، لم تلمس أطراف جلدي...".

أنا وحيدة، لا سند لدي، قلبي مجروح وعيناي أصابهما الرمد منذ الخامس من حزيران، فقدت جميع حواسي، بعد أن تعطل عندي جهاز المناعة، فلم يعد جسدي يقاوم الفيروسات والميكروبات، تسممت رئتاي وصرت عاجزة عن التنفس... لكنني أنا أحبك... صدقا إنني أحبك، ولم أحب غيرك، أنا (عزوتك)، وعباءتك، أنا شريكتك في السراء والضراء... أنت مسكين يا حبيبي، مثلي، متروك، مقهور، عاجز عن السير والممارسة، فقد أحرقتَ عكازيك في الشتاء قبل الماضي لتدفئني بنارهما الضئيلة... أعرف أنك تحبني وأنا أحبك بالقدر نفسه، بل ربما أكثر بكثير...

هوني عليك يا حبيبتي ربما يعود إخوتي من غيبوبتهم،! قاطعتني قبل أن أكمل قائلة: هههههه، هم لن يعودوا، فقد أصبحوا ميتين موتا سريريا، فلولا هذه الحقن الأمريكية لصاروا رمادا منذ سنين، هل يعقل أن يكون الشخص ميتا سريريا لأكثر من سبع وأربعين سنة؟

ربما! فأنا أعرف بعض من ماتوا سريريا منذ سبعين سنة، وهل تعتقدين أن ثمة علاقة بين الموت السريري وموت الضمير؟

لا أعرف... ربما...

عالم ذرة بلون قمحي...

في البلدة القديمة، غير بعيد عن المسجد الأقصى، بُعيد العصر، جلسا أمام حانوتيهما يجتران ذاكرتيهما، يرقبان مجموعات السيَّاح، تمر من أمام الحوانيت، أحيانا يتبادلان الابتسام مع المارين، واليوم ابتسم لهما رجل ملامحه مألوفة وكان محاطاً بعدد من رجال الأمن ضخام الجثث، ظلَّ ينظر نحوهما ويبتسم ابتسامة من يريد قول شيء ما، تحيّرا من ابتسامته ومن نظراته!!! كعادتهما يحاولان تذكر وجوه وأسماء كانت ذات يوم هنا في القدس، سارت على هذا البلاط العتيق...

يتعاقبان الحديث فتنثال الذاكرة كمياه نهر الأردن في آذار، يمران بذاكرتيهما على قصص وحكايات من نوع آخر، كانت قصة الفتى "بلبل" هي الأجمل، بلبل كان محبوبا بين الجميع ، فتى قوي شجاع كريم حنون، قمحي البشرة، أخضر العينين، عريض المنكبين، أحبته بنات الحي وأُعجبن به أيما إعجاب، عائلته فقيرة، بل معدمة، هو أكبر إخوته الخمسة، يعمل في مطعم صغير خارج أسوار المدينة بعد المدرسة، أنهى الثانوية

العامة بتفوق ملحوظ، وحصل على منحة للدراسة في الاتحاد السوفيتي قبل تفككه، ومن يومها لم يعرف أحد أخباره، لكن انتشرت إشاعة قوية قبل سنوات تقول إنه تعلم هندسة الألكترونات، والبعض يقول بأنه انتقل إلى أمريكا، ويعمل في مجال أبحاث الذرة، وهذه الإشاعة تأكدت بعد سفر عائلته المفاجئ إلى أمريكا قبل أكثر من عام... نظر كل منهما إلى الآخر ونظرا اتجاه الطريق الذي ابتلع السَّائح، ثم تنهدا وقاما للاستعداد لصلاة المغرب...

سرب من السمك...

في حوض السمك، سبع سمكات، يغلب عليهن اللون الذهبي، وسمكة ثامنة سوداء بلون العتمة، لا تمل السمكات عن السباحة في الحوض، أما السمكة السوداء فهي تلتصق بجدار الحوض معظم الأوقات، وعندما تتحرك يحدث أمر غريب بين السمكات الأخريات؛ حيث يتجمعن ويسبحن معاً، متفاديات الاحتكاك بالسمكة السوداء، تتحرك السمكة السوداء بسرعة تفوق الأخريات، وتحاول ملاحقة سمكة ذهبية خرجت عن سرب السمكات، تحاول قضمها من الخلف لكنها تهرب باتجاه أخواتها، وتختفي بينهن، لتعود السمكة السوداء إلى زاوية الحوض، وتلتصق بالجدار بانتظار سمكة تخرج عن سربها من جديد...

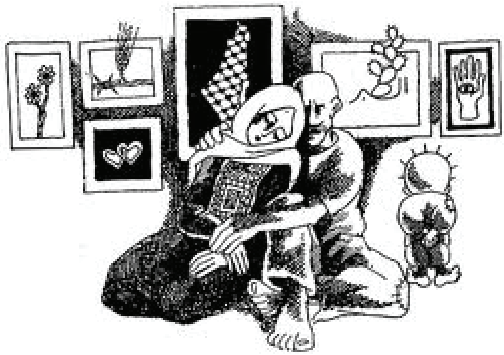
النصر...

ما هذه الدموع التي أراها في عينيك!؟

أأنت حزينة عليه؟

هل تفتقدينه كثيراً؟

لا. يا سيدتي، لا تحزني، انهضي استعدي، انتفضي مرة واحدة، وإذا فعلت، فتهيئي لاستقباله وأنت بكامل زينتك...



جاذبتني حلمي الصغير وكشَّرتْ،

خلتها انقضَّتْ عليَّ، داريتها، وانزويتُ في ركن قصي، حاولتُ أن أصنع أملا فصنعت،

لملمت فُتات حلمي،

أعدت لوجهي لونه الوردي، فعاد متألقا كالنيروز،

ضربتُ أفكاري السوداء بسوط الهمة،

أعدتُ لقدميَّ طريق الخلاص،

فرأيتُ النور يبرز من بين ركام الليل البهيم...

فضول...

كنت أسير على حافة الظل، كانوا يستغربون أمري، وكلما مررت ببعضهم، يقطعون أحاديثهم، وينظرون نحوي متفحصين لون سترتي الجلدية، سروالي الكتاني، قميصي الأبيض، مشيتي المتأنية، نظرتي الثابتة نحو الأمام، إصراري على معانقة ظلالي، أسلوبي في إطعام الحمام الصخري... بداية الأمر، انزعجت من فضولهم القسري، لكنني فيما بعد اعتدته، بل لم أعد آبه به...

افتقاد...

ثمة من لهم في ذاكرتنا نوافذ لا تغلق أبدا مهما تجددت الذكريات، ظننت أنني أسير في هذه الحياة دون بوصلة، لكنني تيقنت اليوم أن طريقي مرسوم بعناية إلهية، مرسوم بأحرف مسمارية، نقشتها على جدار قلبي أيد ظللتها رحمة السماء بعنايتها؛ أمي... أنا أفتقدها...



حنين...

وأنت تبتعدُ عن عيون تعشقها ويدين تلمس شغاف قلبك حين تلمسها، ونافذة تُطل منها على أمل ترعرع، وفرس تمتطي صهوته قُبيل الفجر، فيصهل مستبشرا، وصديق تلوذ من ضيق الحياة بين يديه...

انظر نحو البحر واصرخ بأعلى صوتك قائلا: إني بشوق إليكم...

لها مع خالص الحب...

حبيبتي، وأنا أفكر بك أشعر بأني أطفو فوق غيمة، فأنت قيثارة تعزف لحن العشق في أمسيات نبلاء الإغريق، تتمايل أناملك الطرية على أوتار العشق السرمدية، فتصبح موسيقاك جسرا يصل بين الأرض والسماء، وعندما ينزل الغيث من عمق سحابة تحجب وجه القمر، ينزل الماء شفافا رقيقا دون اسم أو لون، عندها ينحني الصخر احتراما لجداول تسللت من بين حقول القمح الذهبية... أبلل قدمي بمائه الرقراق، العذب، فتصبح الدنيا حكاية تلهم الشعراء، فيكتبون أعذب قصائد الهوى العذري...

امرأتي...

مثل دجاجة بدون رأس، كنتُ أتخبطُ هنا وهناك، كنتُ عنيداً، أذهبُ عكس الاتجاه، فقابلتك متأخرا هذا المساء، رأيتكِ الأجمل، وأنتِ تضحكين، وقد عبث بشعرك فنان أسطوري، كنتِ تجلسين أمامي كآلهة العشق الإغريقية...ارتحتُ، تنفستُ بعمق، أشهرتُ كلمات الحب العذري من معاجمي الوردية، بلحظة صفاء أطلقت سهام عينيك، فوقعتُ أسيرا لأهدابك...

أنا الآن أكثر نضجاً، أكثر استقراراً، أنا الآن بين يدي امرأة عرفت كيف تكون صديقة، وحبيبة، وأماً ورفيقة، عرفت كيف تجعل مني رجلاً في سن العشق، وكيف تجعل مني صبياً يلعب على سريره الأزرق بألعاب طفولية، عرفتْ كيف تجعل الليل مسرحا لكل العروض الكلاسيكية، روميو وجوليت، وتاجر البندقية، بورشيا بوفائها تنقذ أنطونيو من

براثن شرلوك اليهودي الجشع، وجلجامش وقد انتصر أنكيدو على آلهة السماء، فصار خالداً، علمتني قراءة النجوم، فعرفت طريقي عبر صحراء الربع الخالي، لأصل بلاد الملح...

هي امرأة تملك بيديها مفاتيح السماء، تعرف الفرق الشاسع بين الجنة والنار، ملهمتي إلى سبيل الكلمات، تفوقتُ على شياطين الشعراء، مسحل وهبيرا، وزعيمهما الشيصبان... فصرتُ أسبح سباحةً في عمق الكلمات...

استوعبتْ جنوني، وقلمتْ أظافري، وأكرمتْني كالسماء بغيثها، فاخضرت حقولي وأنبتتْ أزاهيرَ ليلكية، تماماً كما أُحبها، ليلكية...

تسيرُ فتسير معها السعادة كظلها، أثارتني حرَّكتْ فيّ الرّجولة، تركتُ حيرتي على خصرها الحالم، وأبحرتُ عميقا في محيط عينيها، وتركتُ سُفني الشراعية على موانئ أنوثتها...فبقيت خالدا كشعراء بني أمية...

نتالي...

تتحرك كبندول ساعة سويسرية، لا تمل من الحركة وأنا لا أملّ من النظر إليها.. تحفظ وجوه زبوناتها عن ظهر قلب، هي جميلة رشيقة لا تفارق الابتسامة محياها، رقيقة تتنقل من طاولة إلى طاولة كالفراشة، دانمركية القوام، سويدية العينين، رومانية الشعر، نرويجية الأسنان، أوكرانية الشفتين، ملائكية الوجه، تعرفها رمال الشاطئ، فتلين تحت قدميها، تكاد في مشيتها تطير طيرا، تعطي نكهة للمكان، كنت أحب الشاي بالنعناع من يديها...

عندما عدت للمكان بعد أكثر من شهرين، تذكرتني، فأحضرت الشاي بالنعناع دون أن أطلبه منها، أعجبت بذكائها، قالت: ابق هنا، ولا ترحل باكرا كعادتك يا سيدي. لاحظت استغرابي، فقالت: سيقام حفل راقص، بعد فترة العشاء فابق هنا، سيكون حفلا ممتعا، وأشارت بطرفها بابتسامة تذيب صخور الأرض من رقتها.

لم تكن على أجندتي حفلتها الراقصة، بل لم أفكر قط بوضع مثل هذا

البند على أي من أجنداتي، واليوم، قررت إلغاء كل بنود الأجندة، وتلبية دعوة هذا الملاك...

أكملت كوب الشاي ببطء شديد، وتلفت أبحث عنها في كل اتجاه، فلم أجدها، كانت قد اختفت فجأة قبل الحفل بزمن قليل.

ظننتها قد أنهت عملها وذهبت إلى بيتها، فطلبت ورقة الحساب من زميلتها، التي ابتسمت بلطف قائلة: حالا يا سيدي، انتظرت ورقة الحساب لأكثر من خمس عشرة دقيقة، لتأتي هي بفستان نيلي قصير، وصندل عال، وحقيبة جلدية تتناسب والحذاء، هي بكامل أناقتها، سيدة لا تشبهها النساء، قالت بهدوء يفتت الفولاذ: أنت ضيفي ورفيقي هذا المساء، أكون سعيدة إذا لبيت دعوتي، كانت الموسيقا عالية. وكنا نتحدث بصوت أعلى منها، فلم أسمع معظم حديثها ولكنني توقعته من حركات يديها ومن تعابير وجهها، تغلغلت الموسيقا إلى شراييني، فأخذت أطرافي تتحرك معها بتناغم عذب، تشابكت أيدينا ورقصنا مع الموسيقا حتى كلت السماء من الطرب... فكانت أمسيتي الأولى في عمر جديد...

في الصباح...

قالت لنا صباح الخير، وهي بالكاد تستطيع فتح عينيها السوداوين، كان وجهها كالبدر المشرق، وشفتاها الرقيقتان كحبات فراولة تفتح الشهية لتقبيلهما كلما بللتهما بلسانها الذي يقطر عسلا صافيا، تناولت بأطراف بنانها فنجان قهوة من يدي، فالتهب الشوق بأوصالي لعناقها، كان جسدها يصدر إشعاعاً خفياً يذيب القلب، ويبعثر الأعصاب، فتتحد الحواس الست أمام إشعاعاتها فوق البنفسجية، وصدرها النافر المتحفز للانقضاض، يخيل إليَّ بأنه يتربص بي كلما داهمته بأنظاري، هما أبيضان كالمرمر الروماني، وأزرارهما صغيرة يفوران بلياقة من تحت ردائها الشفاف، وأحشاؤها المقدسية التي تتجمع البراكين على أطرافها، وخصرها الرقيق الذي أحلم بإحاطته بذراعي الثائرتين كلما اقترب المساء، وساقاها العاجيتان الملتفتان كتمثال إيطالي من القرن السادس عشر، وقدماها الصغيرتان اللتان تذهبان العقل برقتهما...

كانت تسير فيسير الشوق مع خطواتها الفتاكة، وعندما تحدثني، كنت

أخشى النظر إلى عينيها، فأطرق حياءً من جمالها، ثم أطلب منها الإذن بالمغادرة، لكنها لا تطلق سراحي إلا بضحكة تدوي في قلبي، كأنها تقول: أنا بعيدة عن متناولك...عند ذلك، أمزق قصائدي شر تمزيق، وأنثر رفاتها فوق حلمي الليلكي...

أندلسية...

كانت تسير بين صويحباتها كالثريا، تتهادى بتناسق أسطوري. بالكاد تلمس أطراف الأرض بأقدامها الصغيرة، كنا معا كفرقة كلاسيكية، يستفزون الشعراء، فيتبارزون لنسج قصائد عذرية، أو غير عذرية، وأنا لم أكن يوما بشاعر، لكنني رأيتها أمامي قصيدة أندلسية...

استراحة...

أمس، وقفتْ أمامي هي وحزنها ودمعها الدافئ، ويداها المرتجفتان، وقلبها الذي يخفق متثاقلا، وعيناها السوداوان اللتان أسرتاني يوم رأيتهما أول مرة قرب الحافلة المتّجهة صوب الأفق البعيد.. كاد قلبي يقفز من بين ضلوعي ليحتضنها ويمسح الحزن الساكن على جدار قلبها الرقيق... رأيتُ حياتي مرسومة على شفتيها، وددت تقبيلها فسرت الرغبة ناراً في شراييني، وضعتْ رأسها على كتفي، فاستراحت.. نامت فانتظم نبضها...

السعادة...

امرأة صالحة، وابن بار،

وثوب نظيف، وصديق وفي، وعمل مثمر،

وكتاب مفيد،

وسرير وثير، وعطر رقيق، وجلسة هانئة،

وفنجان قهوة سادة وسيجارة...



آباء وأبناء...

كلما فتَّحت عينيَّ، أنظر إلى هاتفي النقال، أبحث فيه عن رسالة، أو بعض رسالة، عن إشارة أو لفتة.... فلا أجد شيئا.

وقبل أن آوي إلى فراشي، قُبيل السحور، أتفقد هاتفي للمرة الأخيرة؛ لعلهم أرسلوا شيئا ولم أتنبه له؛ فلا أجد... ألا يعرفون مقدار حبي لهم؟ ألا يدركون كم أتوق إلى عناقهم؟! انتظرتُ سؤالهم بصبر عظيم، فلم يسألوا.

انتظرتُ حنانهم، فلم تتحرك مشاعرهم.

فهل هي سنّة الحياة أم هو سوء في التربية أم سلوك يسير حسبه الأبناء والبنات في هذا الزمن المشوّه؟ أسئلة كثيرة بلا إجابات...

شيء من الحب

شيء من الحب، وبعض الاحترام، ومقدار من التقدير، يُفرحه...

هي، لها كل الحب، وكل الاحترام، وكل التقدير، ولا يجد عندها ابتسامة، ولا فرحة، ولا إشراقه... تقطب حاجبيها، وتقلص عضلات وجهها، وتنشر كل صباح سوداويتها فتذبل أزهار حديقته في عز الربيع ...أخيرا "طفش"...

أرملتان...

لبستا السواد، هي المرّة الأولى التي تلبسان بها السواد، جلستا غير بعيدتين عن بعضهما، تنظران من تحت حواجبهما المقطبات، حاولت بهية استراق النظر مستغلة انشغال حليمة بالبكاء، تحاول التعرف عليها دون أن يكون في نفسها شيء من الغيرة بعد أن توفي زوجاهما. اليوم هما أرملتان لزوج واحد، لأول مرة تجتمع الاثنتان في غرفة واحدة، تتقبلان العزاء بزوجهما. التابوت ما زال وسط الغرفة، هي لحظة الوداع الأخير، الزوج الميت داخل التابوت بلا حراك، لا ملامح للحزن أو الهدوء أو الغضب أو أية انفعالات أخرى.. إنه ميت، قلبه لا ينبض، جفنه لا يتحرك، دمه راكد في مكان ما في جسده البارد، هو اليوم ساكن كصخرة صماء.

بهية في قرارة نفسها: "ليتني لم أنغّص عليه، لكنه تزوج من امرأة أخرى!! ليكن، أكان علي أن أحقد عليه لهذه الدرجة؟ لقد سممت دمه بنكدي اليومي، لكنه نال ما يستحق".

تنظر إلى حليمة، التي كانت تكفكف دموعها، وتهمس قائلة:" مسكين

يا زوجي، أتعبناك، قضيت حياتك ساعيا لإرضائنا، وها أنت اليوم في العالم الآخر، لقد ذهبت ضحية أنانيتنا.

انتهت أيام العزاء، انفض الجمع، ولم يبق غير الأرملتين، والسواد، وبعض الذكريات المؤلمة، جلستا حول الطاولة المستديرة، أشعلت بهية سيجارة لها، وأخرى لحليمة. لم تتحدثا حديثا جديا في الأيام الأولى، كانتا تتعاملان مع بعضهما بحذر شديد، تناولتا القليل من الطعام معا، وشربتا القهوة السادة ودخنتا السجائر، لكنهما لم تتحدثا، ولم يأت لزيارتهما أحد في الأيام التي تلت العزاء. في اليوم الخامس، جاءت إحدى جارات بهية لزيارتها، وكانت حليمة تجلس على كرسي غير بعيد من الباب، أفسحت الطريق لأم سليم كي تدخل بسهولة. وعندما جلسن لشرب القهوة التي أعدّتها بهية، نظرت أم سليم إلى حليمة وقالت:" هل استرحت الآن؟"

وقفت بهية على قدميها وصرخت بوجه أم سليم قائلة:" إذا لم تحترمي حليمة أكثر من احترامك لي، فلا أريدك أن تأتي إلى بيتنا" هيا اعتذري لها...أو انصرفي من هنا... قامت حليمة واحتضنت بهية، وأخذتا تجهشان بالبكاء...

« كفي بلاءك عني سيدتي، ليس لي مقدرة

على مواجهة سهام عينيك الفتاكة»

فوضعت خمارها وأكملت مسيرها تمشي كالطاووس الهندي...



غصة...

آه... ما ألذَ هذا الشعور..!

اليوم ، تحررتُ من قيودي، تحررت منها...

اليوم، أنا " حُرّ " ...

سوف ألبس ملابسي الوردية، أشعر الآن بأن دمي وروحي وقلبي بلون الزهر... اليوم تحررتُ...

مهلا...!! فما هذه الغصة التي تستوطن فوق حجابي الحاجز؟!

لعنها اللهُ من غصة...

صراع...

ترجل عن صهوة نرجسيته، يمشي تجاه السوق القديم، يستخدم عادته القديمة في التفكير، يحاول الإصغاء إلى قيمه، إلى نصائح سمعها من شيوخه، ومن علماء التقى بهم على حافة الحياة. توحّد الشيطان والنفس داخل رأسه المتخم بالوساوس والقلق، انقضا عليه ينشبان مخالبهما في بؤرة أفكاره المتضاربة...

صراع دموي بينه وبينهما، تنازعه النفس، تغويه، تجذبه نحو أعمق هاوية، ويتمثل له الشيطان بصور شتى، يجره إلى ميادين الجريمة، فكيف له أن ينتصر على النفس؟ وكيف له أن يهزم شيطانه؟ كيف له أن يخالفهما؟ كيف له أن يعصيهما؟ أسئلة كثيرة محيرة...

قلق...

سألتني وهي تعرف الإجابة: "لمَ القلق يا عزيزي؟ لماذا لم تنم تلك الليلة؟ فأنا أيضاً لم أنم!!" قلت: عانقتني الأشعار بفيئها، وتقاسمت مع طيفها سحر قمر آب، تصادقت مع السكون المنبعث من عتمة المكان، وأخذت أنشد مع الفجر نشيد الشروق المقدس، مستسلما لرائحة الحلم الماسي، ولم أكن قلقا أو قريبا من القلق.

متزوجة...

قال لها: "أحبك حبا لو كان فوقك لأظلك، ولو كان تحتك لأقلك".

ابتسمت قائلة: " ولكنني أحب زوجي"...

حمدا لله أنك زوجي...

كانت تجلس على أريكتها الجلدية، تستند على وسادة حريرية، يستلقي بجانبها كتاب من العصر العباسي الأول، كانت سارحة في خيالها، لم أشأ إزعاجها بادئ الأمر، فانتظرت حتى تصحو من غيابها، ولما تنبهت لوجودي، طلبتْ أن أجلس غير بعيد عنها، ثم سألتني بهدوئها المعهود: " ماذا تعني لك كلمة(الهمة)؟

لم استغرب سؤالها؛ فأنا اعرف شطحاتها مع الأدب، قلت بعد تفكير: الحلم، والأناة...

فقالت: " وماذا ينبغي للشاب في حياته؟"

قلت: أن يكون له عدد من الأشياء، صديق يثق به، يحفظ أسراره، ويفضي إليه بأوجاعه، وبيت يكون له مأوى إذا أتعبه العمل، استراح فيه. ووسيلة نقل تعينه على حياته، وبندقية لا تخونه أبدا عند النزال، وامرأة تُذهب همه...

هزت رأسها كمن استراح من الإجابة، وقالت: " فكيف يفشل المرء في حياته؟"

قلت: عندما يؤجل عمل اليو م إلى الغد، وعندما يختلق الأعذار بتضييع عمل...

ابتسمت بكل هدوء وهي تقول: " حمدا لله أنك زوجي..."

حبيبي أنت لي...

وهي تمسح بيدها الطرية على رأسي، تتسلل الكلمات من شفتيها عذبة كجدول ينساب من بين حقول القمح المتموجة؛ هل تذكر لقاءنا الأول؟ هل تذكر عناقنا، وكيف تشابكت أناملنا، وقهوتنا والسيجار الكوبي، وكيف كان الدخان ينتشر بحلقات حلزونية، وكنت تعجب باللون القرمزي الذي أصبغ به أصابعي، وأنغام رحبانية تنثر سحرها بين ثنايا حلمنا الليلكي، وكيف كنت تحتضنني فوق صدرك العاري، فأنام ملء جفني... حبيبي... أنت لي فعانقني...

اللون البرتقالي

أول من أمس، قبيل الفجر، أطلت بردائها البرتقالي، ارتعش قلبي، ودبت في بدني نمنمة أيقظت جميع حواسي الست، أعادت لقلبي الحياة.

وقفتُ أمام النافذة في مواجهة قرص الشمس الخجول، هي بيني وبين الشمس، اختلطت ألوانها بألوان الشروق بألوان بيَّارة البرتقال المتروك تحت شجره، بعد أن هجره جامعوه. كانت برقّة الفراشات الصيفية، بوجهها الطفولي، ينسدل شعرها الكستنائي حول وجهها الذي اعترته حُمرة الحياء المقدس، وصدرها النافر يتحفز للانقضاض على الغزاة، وخصرها الدقيق الذي يحجز بين أحشائها البغدادية وردفيها الروميين، تتحرك بوجل على ساقين مرمريين، وقدمين دقيقتين يذوب تحتهما صخر المشهد، وأنا وقد عادت لقلبي الحياة من جديد لم أشأ أن أستيقظ من هيامي...

تعب...

عاد إلى بيته مسرعاً، صعد درجات السلم الخمس بخطى عريضة، وجدها على السرير ترضع طفله الوحي، أشارت بيدها، ففهم أنها تساعد رضيعها على النوم. بدت بكامل أناقتها الأنثوية، عليها فستان رقيق أحمر اللون من الشيفون الهندي، وشعرها الأسود المنسدل على ظهرها، يداعب بحركته اللاإرادية خصرها الرقيق، الذي يستند على ردفيها في تناسق أسطوري، يبرز جسمها كأنها لم تلد ولم تحمل، وصدرها المكتنز تحاول جاهدة ستر أطرافه بشال حريري أسود، ووجهها الأبيض الذي يحاكي روعة القمر، وعيناها العسليتان تشتعلان حبا وإثارة، وشفتاها وقد لونتهما بلون قرمزي أضفى عليهما سحرا بطعم الشرق... انتظرها طويلا، لكنه من شدة تعبه؛ ألقى بنفسه على ظهره، فغاب في نوم عميق... بعد دقائق، نام الرضيع مستسلما بين يديها العاريتين، وضعته على سريره الخشبي، وابتسمت قائلة: "نام"...

أوهام...

كانت تجلس وحدها قرب مسجد الشوربجي في القدس العتيقة، ليس بعيدا من باب العمود، على رأس ما يشبه المثلث، ضلعه من جهة اليمين سوق خان الزيت، ومن جهة اليسار طريق الواد، باختصار مقابل بقالة أبو غزالة، كانت تجلس بانتظاره، وعلى محيَّاها علامات القلق، وكلما مرَّ الوقت، يزدَدْ قلقها، وترتفع وتيرة قلبها. اقترب موعد صلاة العصر، فتح آذن المسجد بابه الوحيد، ثم سألها: "هل من خدمة أؤديها لك يا بنيتي؟"

لقد تأخر يا سيدي وأنا خائفة جدا.

من هو يا بنية؟

هو يا سيدي.

نظر نحوها بعطف أبوي، وقال: لا عليك، إذا كان يحبك، ويخاف عليك، فإنه سيحضر بالتأكيد.

لمعت عيناها ببريق كبريق الماس الأزرق، وسكتت عن الكلام حياءً، ففهم الرجل ما يعتمل في صدرها من هيام...

الناس يهرولون أمامها إلى الأقصى، فقد اقتربت صلاة العصر، وهو لم يحضر بعد.. هي صبية بعمر الزهر، قمحية بلون الأرض الطيبة، تلبس ثوبا مطرزا بالحرير الأحمر، لها وجه طفولي، بتقاطيع دقيقة، بنيتها قليلة، على قدر وافٍ من الجمال، وعلامات القلق والحيرة زادتها جمالا وبهاءً.. انتهت صلاة العصر، المصلون يغادرون البلدة العتيقة، والأسواق تفرغ من الناس شيئاً فشيئاً، تنظر في كل اتجاه على أمل أن تراه قادماً، لكنَّ الأمل لم يكن على قدر الرجاء...

صائد الأحلام...

كان سريره باردا، خاليًا من الأفكار، لم يبق فيه إلا أضغاث أحلام، وباقي رواية غلفها غبار، بعد منتصف الليل، رن هاتفه النقال، لم يظهر على شاشته رقم المتصل فتجاهله، لكنه فقد شهيته للنوم فلم ينم، نزل إلي الشارع هاربا من برودة السرير، وتلاطم الأفكار.. وهناك على ناصية الطريق، لاحظ فتاة في مقتبل العمر تجلس على حافة مسطبة حجرية، تلبس فستانا أبيض وتحمل بيدها (حزًا) من البطيخ لونه أقرب إلى الأزرق، مرّ من أمامها فلم تلتفت إليه، لكنه نظر نحوها بطرفه، ولما ابتعد، عاد ونظر إليها من بعيد. هذه المرة، أثارت فضوله، فقرر أن يسأل عن أمرها.. سألها قائلا: هل تحتاجين مساعدة يا سيدتي؟

أجابت بصوت رقيق يطرب القلب: لا،. فأنا بانتظار حافلة الركاب.

لكن الحافلة لا تمر من هنا... استغربت كلامه، لكنها لم تنهض من مكانها، نزلت دمعة كحبة لؤلؤ تدحرجت على خدها الأسيل، واحمرّ وجهها

الأبيض الذي زينته بألوان زادته بهاءً وجمالا.. توجه نحوها وحملها بين ذراعيه وتوجه بها نحو الشارع الرئيس فإذا بالحافلة على وشك التحرك، جري بها بأقصى سرعته ليلحق بالحافلة؛ إلا أن الحافلة بدأت تتحرك، فصرخ على سائقها ليقف، لم يسمعه، زايد من سرعته فتعثر لتقع الفتاة، وتتكسر، نعم، تتكسر، لملم جميع القطع ووضعها في الفستان الأبيض، وصعد إلى غرفته، نثر قطعها فوق سريره، ثم أخذ يجمعها كقطع البازل، قطعة قطعة، حتى لم يتبق إلا قطعة واحدة صغيرة جدا، لم ينجح في تثبيتها بمكانها الصحيح بالرغم من محاولاته العديدة.. لاحظ وهو يحاول تثبيتها أن حز البطيخ العجيب كان يتحول من لون إلى لون آخر مع كل محاولة، ولم يأخذ لونه الطبيعي إلا عندما ثبت القطعة بمكانها الصحيح، فصار لون حز البطيخ أحمر، فما كان منه إلا أن قضم البطيخ بأسنانه، ليفاجأ بعودة الحياة إلى الفتاة من جديد... ودب الدفء بأوصاله وامتلأ سريره بالأحلام الوردية...

هذه ليست بالنوال...

رأيتها تختار بعض ورودها، وقفت أرقبها، وكلما مدت أناملها البيضاء، وقد زينتها بلون أحمر براق، يقفز قلبي خوفا عليها من وخز شوك الورود. لها عينان سوداوان كالليل البهيم، وشعر طويل بلون الخروب الجبلي، وسيقان لُفّت كنول نساج، وخصر نحيل، وصدر مكتنز كقبة صومعة ناسك احترف التأمل في كانون، وردف يبعث إلهام الشعراء...

وقفتُ أرقُبها دون حراك، حتى جزع صاحبي وهمس بأذني

قائلا: " ويحك هذه ليست بالنوال" ...

ماسبيرو...

عند الماسبيرو، كان كل شيء مكانه؛ الأبواب الحديدية الكبيرة، الحرس بلباسهم الأسود، الجنود فوق آلياتهم المتثائبة، الموظفون في طوابير أمام المداخل، أربعون ألف موظف، أربعون ألف رجل وامرأة، أربعون ألف مكتب خشبي بعضها فخم يعتنق الأناقة وبعضها متهالك سئم الملفات المكدسة، وأنا الغريب، أمام البناء الدائري الأسطوري، يمر من أمام ناظري تاريخ متعب مع الإعلام السينمائي والسياسي...

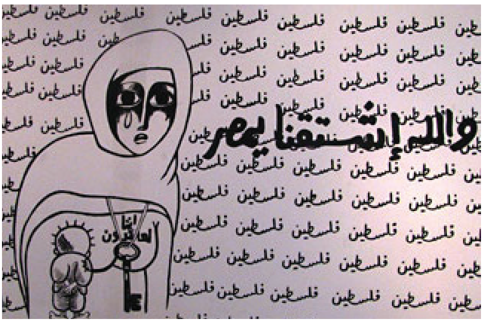
أحلام عريضة لشباب مصري يطمح بالشهرة.

ماسبيرو، هذا الرجل الفرنسي الذي سمي أضخم صرح إعلامي يكاد يكون في العالم باسمه، ماسبيرو المستشرق الذي غزت بلاده هذه الأرض الطيبة، واستولت على معظم خيراته التاريخية، لتزين بها ميادينها الباريسية، في الكونكورد، واللوفر الذي يزخر بإبداعات الحضارة المصرية القديمة، تلك الحضارة التي تشكل إرثا قيما عريقا لكل مصري...

اليوم في مصر، يسلخون المصري عن ثقافته، وعن قيمه، وعن ذاته، ومن روحه الخفيفة التي أضفى بها جمالا وبهاءً على عالمنا...

نحن نحب القديم، ونسعد به، نحب البقاء داخل جلباب الماضي بكل ما فيه من فرح وترح، سعادة وبؤس، راحة وتعب...

لم نطالبكم بإخراجنا فأخرجتمونا قسرا وبهتانا، لم نسألكم، ولم نشكُ لكم أي أمر من أمورنا، فقط، اتركونا وحدنا ونحن كفيلون بحياتنا، ابتعدوا عنا اخرجوا من ذاتنا ولا تستوطنوا تحت جلودنا، لا تطرونا باستئصالكم عنوة، اذهبوا أنّى شئتم، ابتعدوا عنا، عيشوا حياتكم أو موتوا سيان عندنا... لا نريدكم بيننا، فقد تناولنا كل اللقاحات، والمُضادات الحيوية ضد وجودكم...



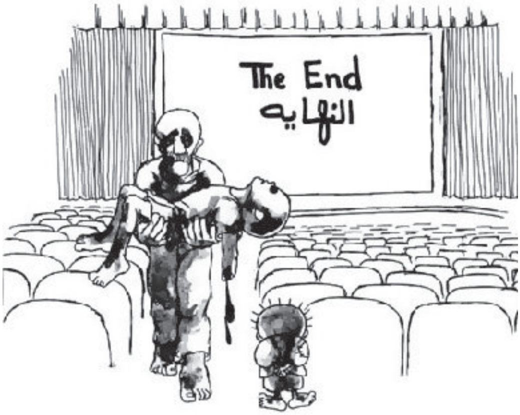
عدالة...

جسر ستة أكتوبر، سيارات بمختلف الألوان، "كلكسات" و "فرامل"؛ وصرخات سائقين أذهب الزحام عقولهم، وبعثر دخان العوادم تركيزهم...

ثمة رجل من عمر النكبة يقف متأهبا للقفز من على الجسر إلى حتفه، لا نهر تحته ولا واديَ تملؤه حجارة؛ فقط سيارات تبدو أصغر حجما.

فوق الجسر، تقف السيارات فجأة!!! الرجال يصرخون بأعلى صوتهم، والنساء يصرخن على المنكوب بأن يعدل عن غيه... لكنه قفز دون تردد، قفز مرة واحدة ليسقط جثة هامدة فوق طريق العدل...

الفهرس



رسومات الكتاب للشهيد ناجي العلي

والفنان طالب دويك